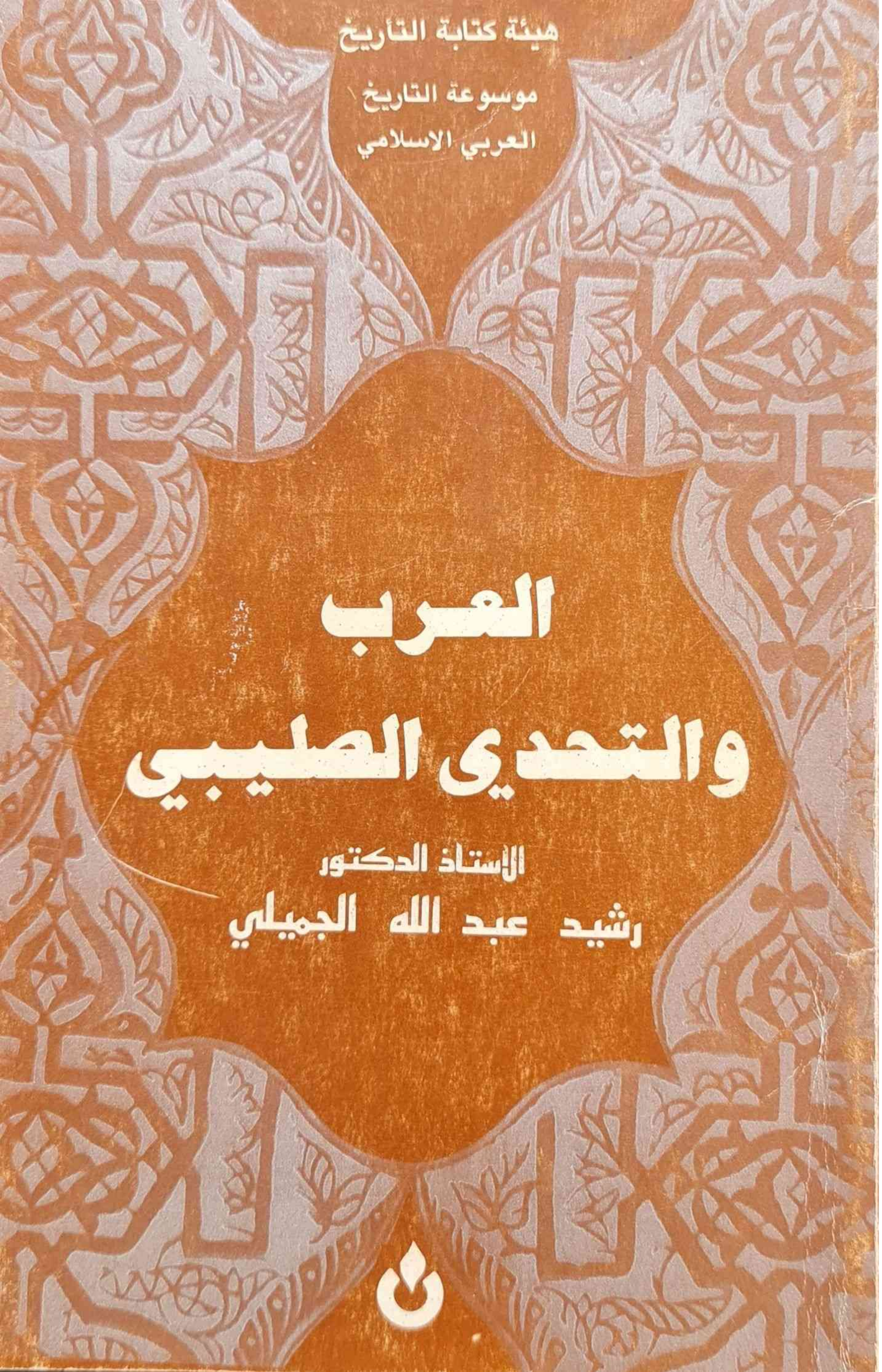


هيئة كتابة التأريخ
موسوعة التاريخ
العربي الاسلامي

العرب والتحدي الصليبي

الأستاذ الدكتور
رشيد عبد الله الجميلي



بغداد ـ ١٩٩٠





طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤



هيئة كتابة التأريخ

موسوعة التاريخ العربي الاسلامي

العرب والتحدي الصليبي

الاستاذ الدكتور رشيد عبدالله الجميلي

الطبعة الاولى ـ لسنة ١٩٩٠

مقدمة تمهيدية :

واجهت الامة العربية في أواخر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي (٤٩١ هـ - ١٠٩٦ م) أشرس غزو استعماري استهدف احتلال أرضها وتدمير كيانها وتمزيق وحدتها ، ذلك هو الغزو الذي أطلق عليه مؤرخو الغرب اسم الحروب الصليبية أو الحملات الصليبية (Crusades) التي امتدت الى ما يقرب من قرنين من الزمن . قامت اوربا خلالها بتوجيه ثماني حملات كبرى الى الوطن العربي اتجهت أربع منها الى بلاد الشام هي : الاولى والثانية والثالثة والسادسة ، بينما شقت الحملتان الخامسة والسابعة طريقهما نحو مصر ، أما الحملتان الرابعة والثامنة فقد احتلت الاولى القسطنطينية وتوجهت الثانية الى تونس .

أما عن سبب تسمية هذه الحروب بالحروب الصليبية فيرجع ذلك الى عدة عوامل منها : ان هذه الحروب كانت قد دعت اليها الكنيسة على لسان بابا روما (إربان الثاني) في دير كلير مونت بجنوب فرنسا ، وان المشاركين في هذه الحروب كانوا يخيطون على ألبستهم عند الصدر علامة الصليب من قماش أحمر . كما ان هذه الحملات كان يتقدمها عدد من رجال الدين المسيحي يحملون الصليب بأيديهم ، في حين أطلق مؤرخو العرب على هذه الحملات اسم (غزوات الفرنجة) .

وقبل المضي في الحديث عن صفحات هذا العدوان الذي

استهدف أرض العرب وتراثهم الحضاري ، لا بد من إلقاء الضوء على الأسباب والعوامل الرئيسة التي دفعت الغرب الاوربي الى غزو الوطن العربي في تلك المرحلة من تاريخ الامة العربية . فواقع الأمر ان هذا الغزو كان قد انبعث نتيجة للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت تسود أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي . ولا يخفى ان الجهاز الكنسي (الكنيسة) في الغرب هو الذي دعا الى هذه الحروب وهو الذي أمدها بتأييده وتشجيعه المادي والمعنوي ، عندما افتتح بابا روما (اربان الثاني) أواخر عام ١٠٩٥ م/٤٨٩ هـ عصر التوسع الاستعماري الغربي في الوطن العربي ، قائلا : « تقدموا الى البيت المقدس . . . انتزعوا تلك الأرض الطاهرة واحفظوها لأنفسكم ، فهي تدر سمناً وعسلاً ، إنكم اذا انتصرتم على أعدائكم ورثتم ممالك الشرق » . وعندها هتفت جموع المحتشدين : « هذه هي إرادة الله » . وحملوا الصليب وتوجهوا في حماس جنوني الى المشرق العربي .

وكان من الطبيعي أن يصطبغ العدوان بهذه الصبغة الدينية الظاهرة في وقت انتشرت فيه الخرافات والاعتقاد بالقوى الغيبية ، واشتد الهوس الديني وروح النسك التي سيطرت على الفئات الفقيرة في الأرياف بوجه خاص نتيجة للظروف الصعبة التي كان يعيشها الفلاحون هناك بسبب الالتزامات المرهقة التي فرضها عليهم كبار الملاك من الاقطاعيين ، فبدأوا يفتشون عن مخرج من هذه الأوضاع المزرية التي اعتقدوا أنها تعبير عن غضب إلهي نزل بهم ولا بد لهم أن يطلبوا (الرحمة من الرب) ، من خلال مأثرة

بطولية بالمعنى الديني للتكفير عن ذنوبهم ، وهكذا قادهم تفكيرهم الساذج هذا ، ومعاناتهم من الفقر والاضطهاد وتعرض الكثير من أراضيهم الزراعية الى الخراب بسبب الحروب والمنازعات بين الامراء والاقطاعيين الذين لم يكونوا يحسنون شيئاً سوى القتل والسلب والنهب والتدمير التي يشعلونها ضد بعضهم تحقيقاً لأطماع شخصية ، الى المشاركة في هذا الغزو الاستعماري الكبير . واذا كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة قد دفعت المعدمين الى الانخراط في حملات الغزو هذه . فان المجتمع الاقطاعي كان يبحث هو الآخر عن وسيلة لتدعم نظامه وامتلاك الثروات والاستحواذ على المزيد من الأراضي ، ولما كانت الكنيسة آنذاك أعظم مؤسسات العصر الاقطاعي وأكبر مالكة للأراضي ، حتى ان رجال الدين أصبحوا أشبه بالاقطاعيين ، فكان من الطبيعي أن تتحمس هذه المؤسسة لفكرة القيام بحملات الغزو الاستعماري ضد الوطن العربي لتدفع عن كبار الملاك اعتداءات من لا أرض لهم من جهة ولتهيىء الفرصة أمام الفرسان لامتلاك الأراضي والأموال هناك .

وأخيراً لا بد من الاشارة الى ظاهرة الحج الى الأراضي المقدسة التي أخذت بالتعاظم خلال القرن الحادي عشر الذي تزامن مع قيام حركة كلوني الاصلاحية التي عملت على تشجيع الاوربيين للتوجه نحو الأراضي المقدسة في فلسطين وقامت بتشييد الفنادق على الطريق وتوفير الأدلاء لتنظيم تلك الرحلات الجماعية ، ولا شك في ان هذه الظاهرة قد أسهمت في اشتداد أو تعميق النزعة الدينية وعرفت الاوربيين على بلاد المشرق العربي

وأطلعتهم على الأوضاع السياسية التي كانت تعاني منها الدولة العربية الاسلامية في تلك المرحلة .

ان الباحث في تاريخ حروب الفرنجة أو الحروب الصليبية لا يحتاج الى دليل لتأكيد الأهداف الاستعمارية والنوايا العدوانية التي انطوت عليها هذه الحروب ، فقد أثبتت أحدث البحوث التاريخية المحايدة ، ان الحركة الصليبية كانت تهدف منذ البداية الى التوسع الاستعماري تحت قناع زائف من الدعاية الدينية في عصر تميز فيه الغرب الأوربي بالتزمت الشديد ، وان هدف هذا الغزو تأسيس مستعمرات لاتينية في قلب الوطن العربي ، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات وتوسيع حدودها والمحافظة على وجودها بشتى الطرق والوسائل لتكون رأس جسر يمارس الغرب الاوربي من خلاله دوره في تفتيت وحدة الامة العربية لتظل في حالة جمود وتخلف وعدم القدرة على التطور ، ضماناً لاستمرار هيمنتهم على الوطن العربي .

وقد كشفت الأحداث خلال الحملة الصليبية الاولى عن النوايا الاستعمارية للغزاة عندما تعرضت مناطق بعيدة عن القدس التي أعلنوا أنها ستكون الهدف الرئيس لتلك الحملة ، حيث امتدّ عدوانهم ليشمل إقليم الجزيرة الفراتية فضلاً عن بلاد الشام ، كما أصبحت مصر وتونس هدفاً لحملاتهم التالية .

وقد أورد المؤرخ السرياني المجهول معلومات مهمة ألقت الضوء على الأهداف الاستعمارية التي عمل امراء الحملة الاولى على تحقيقها على حساب الامة العربية ، حيث ذكر ان قادة الفرنج

حين وصلوا الى الشام اختلفوا فيما بينهم ، فبعضهم رأى مهاجمة ميا فارقين ، وفريق آثر احتلال آمد ، وفريق تطلع نحو نصيبين ، في حين طمع آخرون في احتلال مدينة الموصل !! وقد اعترف عدد من المؤرخين الغربيين بحقيقة العدوان الاوربي الصليبي ، وأبعاده ومراميه ، وفي ذلك يقول المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه R. Grousset ، « ان الحروب الصليبية أدت الى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في المشرق العربي » كما أوضح زميله لويس هالفن L. Halphen ، « ان الحركة الصليبية هي امتداد طبيعي لحروب التوسع الاقطاعي التي شهدها الغرب في القرون السابقة لتلك الحركة » . أما المؤرخ الانكليزي جورج تريفليان G. Trevelyan فقد أكد ان العدوان الصليبي ما هو إلا حركة توسع خارجي قامت بها اوربا الاقطاعية ضد الامة العربية ، ويؤيده في ذلك برنارد لويس B. Lewis حيث يؤكد ان هذا العدوان كان أول محاولة مبكرة في التوسع الاستعماري للغرب الاوربي ، تحركها اعتبارات مادية ودنيوية ويغلفها الدين كعامل نفساني ، كما كشفت الأميرة أنا كوفينا في مؤلفها عن حياة أبيها الامبراطور الكسيس كومنين عن حقيقة دوافع الحركة الصليبية ، ومدى طمع وجشع الفرنج وحبهم للمال واتخاذهم الدين ستاراً لهذا الغزو .

الأوضاع السياسية للدولة العربية :

ان أسباب ودوافع العدوان الاوربي الصليبي لم تقتصر على تلك التي توافرت في الغرب في تلك المرحلة ، بل ان هناك أسباباً ذاتية توفرت داخل الوطن العربي تمثلت بالمستوى السياسي الذي وصلت اليه الدولة العربية الاسلامية خلال العصر العباسي الثاني ، ووضعته في موضع الضعف مهيئة الظروف أمام الغزاة المعتدين لتحقيق أهدافهم الاستعمارية ، حيث سادت الدولة العربية الاسلامية آنذاك حالة الانقسام والتفكك السياسي كمحصلة للسياسة التي سلكتها العناصر الدخيلة التي فرضت سيطرتها على الخلافة العباسية ومؤسساتها الادارية بدءاً من أواسط القرن الرابع الهجري وأشاعت نوعاً من التمزق السياسي والانقسام المذهبي والتفرقة العنصرية .

ففي سنة ٣٣٤ هـ تمكن البويهيون الفرس من غزو بغداد واحتلالها وفرض نفوذهم على الخلافة العباسية ومؤسساتها الادارية ، فكان ذلك بداية لأسوأ مرحلة مرت بها الدولة العربية ، فقد عمل البويهيون على الاستئثار بالسلطة وجردوا الخلفاء من سلطاتهم وحالوا دون ممارستهم لصلاحياتهم في الحكم وادارة شؤون الدولة . وتعرض خلفاء هذا العصر الى القتل والتعذيب والتجاوز على حرمة الخلافة منذ الأيام الاولى لدخولهم بغداد ، ولم يقف الأمر الى هذا الحد بل تعرض البويهيون لتاريخ الامة وعمدوا الى تشويه تراثها الانساني ورسالتها السماوية ،

وشجعوا الكتاب على النيل من قادة الامة ورجالها العظماء الذين أسهموا في إرساء دعائم الدولة العربية الاسلامية وبناء حضارتها المتميزة ، وقد استمر تغلب البويهيين على السلطة حتى سنة ٤٤٧ هـ ، عندما دخل السلاجقة بغداد بقيادة طغرلبك ، وهكذا بدأت الخلافة العباسية مرحلة جديدة من مراحل السيطرة الأجنبية في ظل السلاجقة الذين حرصوا في بادىء الأمر على إظهار احترامهم وتأكيد طاعتهم للخليفة العباسي غير انهم لم يلبثوا أن فرضوا سيطرتهم على الخلافة ومؤسساتها الادارية .

وفي عهد ألب أرسلان الذي خلف عمه طغرلبك شرع السلاجقة بانتهاج سياسة التوسع على حساب الامبراطورية البيزنطية التي دأب حكامها على مواصلة التعرض لأراضي الدولة العربية الاسلامية الشمالية ووصلت غاراتهم الى مدينة حلب ، فتوغل السلاجقة في آسيا الصغرى ، ونجح ألب أرسلان في إلحاق هزيمة ساحقة بجيوش الامبراطور رومانوس الرابع في موقعة منزيكرت (ملا ذكرد) سنة ١٠٧١ م - ٤٦٣ هـ . عدّها المؤرخون أكبر كارثة حلت بالامبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، وذهبوا الى القول بأن ما حدث سنة ١٠٩٥ م من دعوة للحرب الصليبية في الغرب الاوربي انما كان رد فعل لتلك الكارثة .

والواقع ان الانتصارات الكبرى التي حققها السلاجقة في آسيا الصغرى قد دفعت الامبراطور ميخائيل السابع الى الطلب من البابا جريجوري السابع دعوة امراء وملوك اوربا الغربية للدفاع

عن الدولة البيزنطية .

غير أن دولة السلاجقة هذه ما لبثت أن آلت الى الضعف والتفكك بعد وفاة ملكشاه بن ألب أرسلان سنة ٤٨٥ هـ وما ترتب على ذلك من تفجر النزاع حول السلطنة بين أولاده من جهة وبينهم وبين أعمامهم من جهة اخرى ، وقد كان موقف الخلافة خلال هذه المرحلة موقف المتفرج أحياناً والمساند لهذا الطرف أو ذاك حيناً آخر ، ثم شهدت الخلافة العباسية فترات من الانتعاش واستعادة النفوذ بعد وصول المسترشد بالله الى سدة الخلافة سنة ٥١٢ هـ ، واستمرت هذه الصحوة حتى سنة ٥٥٢ هـ عاد بعدها السلاجقة الى ممارسة ضغوطهم على الخلفاء والتدخل في شؤون الخلافة حتى آلت الخلافة الى الناصر لدين الله الذي انتهى في عهده النفوذ السلجوقي في العراق سنة ٥٩٠ هـ .

ولا شك في ان هذه المرحلة من تاريخ الخلافة العباسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجري قد تركت آثاراً سلبية خطيرة على كيان الدولة العربية وأشاعت نوعاً من التمزق السياسي تمثل في تحول عدد من المدن العربية الى كيانات وراثية استقلت استقلالاً جزئياً أو كلياً عن الخلافة العباسية انشغل حكامها في التناحر والتوسع على حساب بعضهم البعض ، وقد انعكست هذه الأوضاع على أمن الدولة العربية وقدرة الامة على مواجهة أعدائها وصمودها في وجه التحديات التي كانت تستهدف النيل من وحدتها وعرقلة مسيرتها الحضارية .

ولم تكن الأوضاع في مغرب الوطن العربي بأحسن منها في مشرقه ، حيث شهد قيام الدولة الفاطمية سنة ٩٠٩ م وانتقالها الى

مصر سنة ٩٧٢ م وما رافق ذلك من صراع بينها وبين العباسيين ، أسهمت في وضع الوطن العربي موضع الضعف واستنزفت جزءاً كبيراً من إمكاناته البشرية والاقتصادية ، كمحصلة للسياسة التي انتهجها الفاطميون والتي تتمحور حول انتزاع أقاليم الخلافة العباسية وصولاً الى الانفراد بزعامة الدولة العربية الاسلامية . وفضلاً عن الفاطميين شهد المغرب العربي خلال هذه المرحلة قيام دول اخرى اعترف بعضها اعترافاً اسمياً بالخلافة العباسية وحافظ على صلته بها كدولة المرابطين (٤٦٥ هـ - ٥٤١ هـ) في حين استقل البعض الآخر كلياً عنها كدولة الموحدين (٥٤١ هـ - ٦٦٨ هـ) .

ولا شك في ان هذه الأوضاع قد زادت من حالة الضعف والتفكك الذي كانت تعانيه الدولة العربية الاسلامية آنذاك في الوقت الذي كانت اوربا تستعد فيه للقيام بأكبر عملية غزو استعماري ضد الوطن العربي .

الغزاة يحققون أهدافهم الاستعمارية على حساب الامة العربية :

وتحت وطأة هذه الظروف التي كانت تخيم على سماء الوطن العربي شرع الغرب الأوربي بشن عدوانه الواسع النطاق ، فمع بداية عام ١٠٩٧ م/٤٩١ هـ كانت هناك مجموعتان من الغزاة تستعد لشق طريقها نحو بلاد الشام ، ضمت الاولى أعداداً غفيرة من العامة الذين استجابوا لنداء البابا إريان الثاني ، وقد تزعم هذه

الحملة كل من بطرس الناسك ووالتر المفلس ، ولم تحقق حملة العامة هذه أهدافها حيث تمت إبادة معظم عناصرها في آسيا الصغرى ، مما دعا الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين الى إرسال عدد من سفنه الحربية لنقل من بقي منهم على قيد الحياة الى القسطنطينية ، وأنزلهم بضواحي المدينة بعد أن أمر بتجريدهم من السلاح خوفاً من احتمال قيامهم بأعمال تخريبية كتلك التي اقترفوها بحق مواطني الدولة البيزنطية قبل عبورهم البسفور .

وبعد فشل حملة العامة هذه بدأت الحملة النظامية التي عرفت بالحملة الصليبية الاولى بالتحرك صوب بلاد الشام سنة ١٠٩٧ م ـ ٤٩١ هـ ، وكان قوام هذه الحملة الامراء الاقطاعيين من الفرنسيين والايطاليين والنورمنديين ، ولم تكن تحت قيادة موحدة ، بل تمثل فيها الاقطاع بوضوح تام ، فكان لكل أمير اتباعه ورجاله وجنده ، وكان من زعمائها : الكونت فيرماندو هيج الكبير أصغر أبناء هنري الأول ملك فرنسا ، وجودفري دي بويون أمير منطقة اللورين الأدنى وأخوه المعروف بكونت بولونيا ، وبلدوين ، وكونت دي نورماندي أكبر أبناء وليم الفاتح ، وبوهيمند النرمندي وابن أخيه تنكريد ، وريموند الرابع كونت دي تولوز ، وقد اعترف هؤلاء جميعاً بولائهم للامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين ، وتعهدوا باعادة الأراضي التي سبق ان انتزعها السلاجقة من الدولة البيزنطية ، وفي مقابل ذلك أعلن الامبراطور استعداده لامدادهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من الاشتراك شخصيا في هذه الحملة ، كما وعد ان يكون على رأس احدى الحملات البيزنطية التي ستتوجه مستقبلاً الى بلاد

الشام .

وقد نجح الغزاة في هذه الحملة في تحقيق سلسلة من الانتصارات السريعة أسفرت عن قيام أربعة كيانات دخيلة هي : أمارة الرها في أعالي الفرات سنة ١٠٩٨ م وانطاكية في السنة نفسها ، وبيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، أما الامارة الرابعة فكانت طرابلس التي تأخر سقوطها بأيدي الغزاة حتى سنة ١١٠٩ م - ٥٠٢ هـ ، وقد أصبحت هذه الامارات قواعد للصليبيين تنطلق غاراتهم منها ضد المواقع المجاورة ، فسفكوا المزيد من الدماء وأشاعوا الذعر بين السكان الآمنين ، وقد أشار المؤرخ ابن القلانسي في مؤلفه الموسوم : « ذيل تاريخ دمشق » الى وصول الفرنج الى الشام وقال انهم دخلوا البلاد (في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها) .

والواقع ان وصول الغزاة الى بلاد الشام واحتلالهم لبيت المقدس قد أحدث ردة فعل عنيفة بين صفوف الجماهير العربية التي أعلنت سخطها على السلطان السلجوقي وحكام المدن الشامية فضلاً عن استغاثتهم بالخلافة العباسية .

الفصل الأول

معارك التحرير ضد الغزو الصليبي

على الرغم من الأوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت تعانيها الامة العربية عشية العدوان الاوربي الصليبي إلا أن ذلك لم يقعدها عن القيام بدورها النضالي في الدفاع عن أرضها وحماية مبادئها ضمن ظروف المرحلة التاريخية وبحدود الامكانات التي توافرت لديها آنذاك .

وللحقيقة والتاريخ نؤكد أن العبء الأكبر في عملية التصدي للعدوان الاوربي قد وقع على العراق بوصفه مركز الدولة العربية الاسلامية وحاضرة الخلافة العباسية التي كانت تعد مصدر قوة روحية للمسلمين كافة ، وان اكتفت آنذاك بتوجيه النداءات الى السلطنة السلجوقية والى امراء الأطراف تحثهم فيها على تحمل مسؤوليتهم في الدفاع عن البلاد وتوحيد صفوفهم لمواجهة التحدي الأوربي ، وقد كان للموصل دور الريادة في قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة المعتدين منذ الأيام الاولى للعدوان ، فقد هيأت لها امكاناتها البشرية والمادية وقربها من مسرح الأحداث أن تكون قاعدة للعمليات العسكرية ضد الغزاة في إقليم الجزيرة الفراتية والشام ، كما أصبحت منطلقاً لارساء دعائم الوحدة بين القوى المقاتلة في

المنطقة ، واتيح لامراء الموصل القيام بدور خطير في رسم أحداث تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ امتنا العربية ، فدخلوا قادة وحلفاء مع إخوانهم امراء المدن المجاورة في معارك أتاحت للعرب التحول من مواقع الدفاع الى مراكز الهجوم .

وهكذا فان العراق كان الرحم الذي أنجب اولئك القادة الأفذاذ الذين رفعوا راية الكفاح وتحملوا مسؤولية الدفاع عن الأرض والمبادىء والذود عن شرف الامة وكرامتها في وجه أخطر تحدٍّ عرفته العصور الوسطى .

ان المتتبع لنضال الامة العربية وتصديها البطولي للغزو الصليبي يجد أن صفحات ذلك النضال قد توزعت بين أربع مراحل تاريخية تألق خلالها قادة عظام تحملوا مسؤولية التصدي للعدوان وفقاً لطبيعة المرحلة السياسية والامكانات الذاتية ، وقد أسهمت كل مرحلة في التمهيد لانتصارات أعظم حسمت الموقف لصالح العرب ، وأرغمت الغزاة على العودة من حيث جاءوا حاملين معهم أحلامهم المريضة ومخططاتهم الشريرة التي استهدفت تدمير الامة العربية وتمزيق وحدتها وإعاقة مسيرتها الحضارية .

المرحلة الاولى (٤٩١ هـ - ٥٢٠ هـ) :

كانت الموصل عشية وصول الحملة الصليبية الاولى تخضع للسيطرة السلجوقية التي حرصت على اسناد حكمها الى شخصيات عسكرية مهمة عرفت بكفايتها ومقدرتها الحربية ، وقد

تعاقب على الحكم عدد من الامراء الذين كان لهم نفوذ واسع في اقليم الجزيرة الفراتية وديار بكر وشمال الشام ، وأصبحوا موضع التقدير بسبب تزعمهم لحركة الجهاد ضد الغزو الصليبي الذي بات يهدد الوطن العربي بأسره ، وقد ساعدهم على القيام بهذه المهمة موقع الموصل الحصين بعيداً عن الأخطار المحتملة لأي هجوم مباشر قد يشنه الغزاة من جهة ، ولكونهم يمثلون حلقة الوصل بين الامارات في إقليم الجزيرة وشمال الشام والسلطنة السلجوقية التي ترتبط برابطة الولاء للخلافة العباسية وتعمل على طرد الفاطميين الذين بسطوانفوذهم على الأقسام الجنوبية لبلاد الشام . وقد سعى امراء الموصل خلال هذه المرحلة الى توحيد القوى المقاتلة كشرط أساس لنجاح حركة المقاومة ضد الغزاة ، وقد استمر حكمهم من سنة ٤٨٩ هـ وحتى سنة ٥٢١ هـ التي انتقل فيها حكم الموصل الى عماد الدين زنكي .

كان الصليبيون قد نجحوا في اختراق آسيا الصغرى وواصلوا زحفهم جنوباً ، وفي شهر تشرين أول عام ١٠٩٧ م/٤٩١ هـ وصلت طلائعهم الى مدينة انطاكية الساحلية التي تعد مفتاح الدخول الى الشام ، وأقاموا معسكرهم خارج أسوارها ، وفرضوا حصاراً شديداً حول المدينة مما دفع حاكمها الى طلب النجدة من القوى العربية الاسلامية المجاورة وفي مقدمتها إمارة الموصل ودمشق وحلب ، وقد أسرع قوام الدولة أبو سعيد كربوقا الى تلبية نداء الواجب المقدس إدراكاً منه بالخطر الذي سوف يترتب على سقوط انطاكية في أيدي الغزاة الاوربيين ، وقد

أحدث قرار أمير الموصل بالمشاركة في الدفاع عن انطاكية هلعاً كبيراً بين صفوف الغزاة ، وقد أكدت الروايات المعاصرة للحملة أن بعض عناصر هذه الحملة بدأت تتسرب من المعسكر عائدة الى بلادها . وقد حملت هذه الأوضاع الى ضرورة الاسراع باحتلال المدينة قبل وصول قوات الموصل ، والتحصن داخل أسوارها . إلا أن ما حدث بعد ذلك من تأخر وصول هذه القوات أنقذ الحملة الصليبية من هزيمة محققة ، والواقع أن أمير الموصل لم يشأ الزحف نحو انطاكية ومن ورائه جيش بالرها يهدد جناحه الأيمن ويقطع عليه الاتصال ويعزله عن قاعدته في الموصل ، إذ لا يخفى ان قيام هذه الامارة في الحوض الأوسط من نهر الفرات كان أمراً بالغ الخطورة . بعد أن باتت تشكل خطراً كبيراً على اقليم الجزيرة ومنطقة شمال الشام ، وبخاصة بعد نجاح الغزاة باحتلال سروج وألبيرة وتأمين اتصالهم بحصني تل باشر وراوندوان .

وهكذا كان لدى أمير الموصل من المبررات ما يجعله يتوقف عند الرها للقيام بأول هجوم ضد هذه الامارة اللاتينية في اقليم الجزيرة ، فأقام على حصارها مدة ثلاثة أسابيع ، غير انه لم يحقق هدفه بسبب ما كانت تتمتع به الرها من قوة وحصانة ، ولما طال أمد الحصار من دون جدوى اضطر الى رفع الحصار وواصل تقدمه نحو انطاكية . والواقع ان تأخر وصول قوات الموصل قد أتاح للغزاة فرصة أحكام حصارهم حول المدينة ، فأقاموا قلعة على الشاطىء الأيمن للنهر ، وأصبح من الصعب بعد ذلك وصول الامدادات الى انطاكية ، كما أصبح من المتعذر على أهلها الخروج لرعي ماشيتهم في المراعي المجاورة ، غير ان سكان المدينة ظلوا

صامدين في وجه الحصار .

ولما تناهت الى الغزاة أخبار تخلي قوام الدولة عن حصار الرها ، وزحفه نحو انطاكية ، أدركوا مدى الخطر الذي سيحدق بهم ، فأسرعوا باقتحام المدينة بمساعدة أحد الخونة ويدعى (فيروز) الذي كان مسؤولاً عن حراسة أحد الأبراج في القطاع الشمالي الغربي من المدينة . وهكذا سقطت المدينة بيد الغزاة في اليوم الثالث من حزيران سنة ١٠٩٨ م - جمادى الاولى سنة ٤٩١ هـ ، وأحدثوا فيها مذابح رهيبة بحق السكان ، « وسبوا من النساء والأطفال ما لايدركه الحصر » ، ومع ذلك فقد ظلت قلعة المدينة صامدة على الرغم من ضعف حاميتها .

وكانت قوات الموصل قد عبرت الفرات ، وحين وصلت الى مرج دابق انضمت اليها فرق من عساكر دمشق وحمص وديار بكر وسنجار وغيرها من المدن المجاورة . وتحركت هذه القوات باتجاه انطاكية سالكة الطريق المحاذي لنهر العاصي ، وتمكنت من تدمير احدى الحاميات الصليبية التي كانت تتخذ مواقعها عند جسر الحديد الى الشمال الشرقي من انطاكية ، ثم باشرت في فرض حصارها للمدينة في السادس من رجب سنة ٤٩١ هـ/٧ حزيران سنة ١٠٩٨ م ، وشرع أمير الموصل بوضع خطة لاقتحامها لا سيما بعد أن بلغه أن قلعتها لا تزل صامدة وان شمس الدولة قد تولى قيادة حاميتها بعد مصرع والده ، ويبدو ان قوام الدولة كان يخشى تكرار ما حدث من الخيانة ، فأصر على أن تسلم القلعة الى أحد رجاله قبل الشروع بشن هجومه المنتظر لأنها الموقع الوحيد الذي يمكّنه أن ينفذ من خلاله الى داخل المدينة ، فوافق شمس الدولة

وسلم القلعة الى رجال أمير الموصل .

وهكذا أصبح الغزاة محاصرين داخل انطاكية ، فدب اليأس في قلوبهم ، وانعدمت الأقوات لديهم ، فأكل الأغنياء دوابهم ، والفقراء الميتة وورق الشجر ، واضطر عدد من أعيانهم الى الهرب واستقلوا السفن الجنوبية التي كانت راسية في ميناء السويْدية ، ولم يجد الغزاة أمامهم سوى الاستنجاد بالامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين ليفك الحصار الذي فرضته القوات العربية الاسلامية التي يتولى قيادتها قوام الدولة أمير الموصل ، وخرج الامبراطور فعلاً مخترقاً آسيا الصغرى ، فالتقى بطريقه ببعض الامراء الصليبيين الهاربين من انطاكية فأخبروه بأن العرب قد استردوا المدينة ، وهم في طريقهم الآن الى آسيا الصغرى لسحق قوات الامبراطور قبل وصولها الى الشام ، فقرر الأخير التراجع نحو الشمال ، على الرغم من الجهود التي بذلها بعض الامراء لحمله على مواصلة التقدم لفك الحصار عن الغزاة ، وكان لتراجع الامبراطور أثر سيء في نفوس المحتلين ، فتسللوا من المواقع الأمامية ليحتموا بمنازل المدينة ، مما دفع الأمير (بوهيمند) الذي كان يتولى قيادة الغزاة الى إشعال النار في المدينة ليرغمهم على الخروج الى المتاريس الأمامية والدفاع عن أسوار أنطاكية .

وبلغ من ضعف الغزاة ويأسهم أن أرسلوا الى قوام الدولة (يطلبون الأمان ليخرجوا من البلد ، فلم يعطهم ما طلبوا ، وقال لا تخرجون إلا بالسيف) . غير ان تطور الأحداث فيما بعد قد أساء الى وحدة الجبهة المقاتلة التي كان أمير الموصل يحرص على

سلامتها ، وكان الأخير قد أرسل الى رضوان حاكم حلب يحثه على ضرورة المشاركة في تحرير أنطاكية ، وترددت الرسل بينهما ، وكان بين رضوان وأخيه دقاق حاكم دمشق عداء مستحكم ولم يكن الأخير والحالة هذه يرتاح الى انضمام رضوان الى الجبهة وخشي من أن يتفق مع بعض امراء الأطراف على الغدر به ، فأبدى رغبته بالعودة الى دمشق بحجة حمايتها من الفاطميين الذين توغلوا في بلاد الشام آنذاك واستحوذوا على معظم فلسطين وفرضوا سيطرتهم على القدس .

وهكذا انسحبت قوات دمشق ، في الوقت نفسه الذي غادرت جماعات اخرى بتدبير من رضوان حاكم حلب . ولم تكن هذه الظروف خافية عن العدو الذي كان يتابع ما يجري داخل الجبهة العربية الاسلامية ، فقرروا الخروج للقتال ، وذكر المؤرخ ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) ان بعض امراء الجند أشار على أمير الموصل بقتل كل من يخرج من الغزاة أولاً بأول . إلا أن الأخير رفض ذلك وعدّه ضرباً من الغدر وقال : « أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » . ودارت معركة عنيفة بين الطرفين قاتل خلالها الغزاة قتال اليائس المستميت ، فحلت الهزيمة بجيش قوام الدولة في اليوم السادس من رجب سنة ٤٩١ هـ الموافق للثامن والعشرين من حزيران سنة ١٠٩٨ م .

ومهما كانت النتيجة التي انتهت اليها مبادرة قوام الدولة كربوقا ، إلا أنها كانت حجر الأساس لحركة الجهاد ضد الغزاة المحتلين التي رسمت الطريق للولاة الذين أعقبوه في حكم الموصل

لمواصلة الكفاح والعمل على توحيد القوى المقاتلة في المنطقة .

ولم تتح الفرصة أمام قوام الدولة للعودة الى قتال الغزاة ، إذ لم يلبث أن أدركته الوفاة سنة ٤٩٥ هـ ، فانتقلت السلطة الى شمس الدولة جكرمش الذي واصل سياسة سلفه في العمل على توحيد الجبهة المقاتلة والتصدي لمخططات الغزاة الذين انتهزوا الظروف التي أعقبت سقوط انطاكية فاحتلوا المزيد من المواقع في اقليم الجزيرة ثم تطلعوا لاحتلال مدينة حران . وكانت هذه المدينة تتمتع بأهمية ستراتيجية بالنسبة لامارة الرها التي لم تكن تبعد عنها سوى خمسة وعشرين ميلاً ، ويتيح سقوطها بأيدي الغزاة التوسع شرقاً وإحكام سيطرتهم على إقليم الجزيرة الفراتية وقطع الاتصال بين العراق وبلاد الشام . وانطلاقاً من هذه الأهمية وجه (بلدوين) حاكم الرها الدعوة الى قادة الغزاة لحشد قواتهم استعداداً للقيام بعمل مشترك يستهدف احتلال مدينة حران .

وأدرك أمير الموصل خطورة الموقف والنتائج التي سوف تترتب على احتلال العدو لمواقع جديدة شرقي الرها ، فشرع بالاعداد لمواجهة المخطط العدواني ، وأرسل الى عدد من حكام المدن المجاورة يدعوهم للعمل على انقاذ حران ، فلقيت هذه الدعوة استجابة من لدن هؤلاء الحكام ادراكاً منهم بأن نجاح الغزاة باحتلال هذه المدينة سيكون مقدمة للسيطرة على اقليم الجزيرة الفراتية كله .

وكانت جيوش الغزاة قد غادرت الرها باتجاه حران ، فسلكوا الطريق المحاذي لنهر البليخ حتى بلغوا موضع (الذهبانية) ، حيث شرعوا بتعبئة قواتهم للمعركة ، فوزعوا

قواتهم بين ثلاثة أقسام : تولى (بوهيمند) قيادة القسم الأول ، أما القسم الثاني الذي يضم قوات الرها فكان يقوده كل من بلدوين و (جوسلين) ، وعهد بقيادة القسم الثالث الى (تنكريد) - ابن اخت بوهيمند - وكانت ستراتيجية العدو تقوم على اشتباك قوات الرها مع قوات الموصل في حين تختفي باقي قواتهم للانقضاض في الوقت المناسب .

وفي اليوم التاسع من شعبان سنة ٤٩٧ هـ/٧ آذار ١١٠٤ م بدأت المعركة على ضفاف نهر البليخ ، فعمدت قوات الموصل الى خداع الغزاة فتظاهرت بالهزيمة ، فأسرعت قوات الرها بمطاردتها حتى أصبحت على بعد (١٢) ميلاً جنوبي حران ، ثم اضطروا الى التوقف بعد ان أشرفوا على الهلاك من شدة التعب ، وكانت هذه هي اللحظة الحاسمة حيث أطبقت قوات الموصل ومن معها على الغزاة وأجهزت على العدد الأكبر منهم ، ووقع في الأسر كل من بلدوين الثاني أمير الرها وجوسلين أمير تل باشر ، وفوجىء بوهيمند وتنكريد بسيل الهاربين ، فتملكهما الخوف وهربا الى الرها ، وبلغ الجزع بالغزاة حداً جعل البطريرك برنارد يقطع ذيل حصانه حتى لا يمسك به أحد ، وقدر المؤرخون خسائر الغزاة في هذه المعركة بأكثر من عشرة آلاف قتيل .

والواقع أن هزيمة الغزاة في حران تعد أكبر كارثة حلت بهم في هذه المرحلة أدت الى ايقاف توسعهم نحو الشرق ، وأتاحت لأهل حلب استعادة القلاع والقرى التي كان الغزاة يتخذونها قواعد لشن هجماتهم ضد المناطق المتاخمة لمدينة حلب ، كما استثمر الأمير شمس الخواص حاكم (رفينة) هزيمة الغزاة

وتمكن من استعادة منطقة صوران الواقعة شرقي شيزر ، ولم تلبث بقية الحاميات الصليبية المرابطة في (البارة) و (معرة النعمان) و (كفرطاب) أن لاذت بالفرار الى انطاكية التي أضحت حدودها محصورة بين نهر القويق وبحيرة العمق ، بعد ان كانت تلك الحدود قد قاربت مدينة حلب .

محاولة اقتحام الرها :

كان بوهيمند قد تمكن من الهرب مع ابن اخته تنكريد ودخلا الرها وعملا على رفع معنوية الغزاة هناك بعد ان فقدوا معظم جيشهم ووقع أميرهم بلدوين في الأسر . وقد بذل بوهيمند جهوداً كبيرة من أجل اعداد المدينة للصمود في وجه الهجوم الذي كان يتوقع أن تقوم به قوات شمس الدولة في طريق عودتها الى الموصل .

وقد أتاح تأخر شمس الدولة في الوصول الى الرها الفرصة أمام الغزاة لاستكمال متطلبات الدفاع عن المدينة ، ولا شك في ان قرار أمير الموصل بمهاجمة القلاع المحيطة بالرها قد أضاع عليه فرصة الانقضاض على العدو قبل أن يفوق من حالة اللاوعي التي أصابته في أعقاب معركة حران ، وكان عليه ان يكرس جهده لتدمير القوة الرئيسة في الرها ، والتي سيترتب عليها سقوط باقي المواقع الصغيرة في المنطقة .

وبعد ان اطمأن بوهيمند على قدرة الاستعدادات لمواجهة

أي هجوم تتعرض له الرها ، رحل عائداً الى انطاكية تاركاً تنكريد يتولى أمر الدفاع عنها ، ولم تمض سوى أيام قلائـل حتى ظهرت قوات الموصل أمام أسوار المدينة ، وقد تمكن تنكريد من الصمود أمام أول هجوم قامت به هذه القوات ، غير انه وجد نفسه غير قادر على الصمود بمفرده ، فأرسل يستنجد بالأمير بوهيمند الذي أسرع الى مساعدته . ويبدو أن شمس الدولة قد أدرك صعوبة النيل من الغزاة في هذه الظروف ، فقرر الانسحاب عن الرها بعد اشتباك قصير جرى بينه وبين الغزاة .

أهل الشام يتطلعون نحو بغداد :

لم يجد أهل الشام إزاء تزايد هجمات الغزاة الصليبيين بداً من التوجه نحو بغداد والاستنجاد بالخلافة العباسية ، ولا بد من الاشارة الى ان هذه ليست المرة الاولى التي يتوجه فيها أهل الشام بطلب النجدة من الخلافة العباسية ، فقد سبق أن خرجت جماعات منهم الى بغداد مستصرخين بالخليفة العباسي ضد هجمات الامبراطور البيزنطي (حنا زمسكيس) الذي تعرض لأهالي المناطق الشمالية من اقليم الجزيرة وأحدث فيها مذابح بشرية رهيبة سنة ٩٧٤ م . وذكر المؤرخ ابن الأثير أن أهل الشام (استنفروا الناس في الجوامع وكسروا المنابر ومنعوا الخطباء وحاولوا الهجوم على الخليفة المطيع) ، ثم تكرر هذا الموقف عند بداية الغزو الصليبي لبلاد الشام ، فذكر المؤرخون انه في أعقاب سقوط بيت المقدس بأيدي الغزاة قدمت جماعة من أهل الشام على

راسهم القاضي أبو سعد الهروي قاضي دمشق الى بغداد « فأورد كلاماً أبكى الحاضرين وندب من الديوان من يمضي الى العسكر السلطاني ويعرفهم المصيبة » .

فلما كانت سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م ازداد ضغط الغزاة على مدينة طرابلس بغية احتلالها وجعلها عاصمة لامارة صليبية جديدة على غرار ما حدث في بيت المقدس وانطاكيـة والرهـا ، وعانت مدينة طرابلس من شدة هجمات الغزاة فعدمت الأقوات فيها ، وكان يتولى حكمها آنذاك القاضي فخر الملك أبو عمار علي بن عمار ، فقرر طلب المساعدة من الخليفة العباسي وتوجه الى بغداد في رمضان سنة ٥٠١ هـ . وذكر ابن القلانسي مؤرخ دمشق ان أمـير طرابلس استقبـل من لدن الخليفـة استقبالاً حسنـاً ووعده السلطان بانفاذ العساكر معه وأصدر أمراً الى بعض قواده بالمسير معه (وانجاده على طرد محاصري بلده والايقاع بهم) .

والواقع ان رحلة ابن عمار الى بغداد كانت عاملاً مهماً في تحريك الجماهير وحمل السلطة على الاسـراع في توجيـه الجيوش لمواجهة التحدي الصليبي .

وكانت الموصل قد بدأت في هذه المرحلة صفحة جديدة من صفحات النضال ضد الغزاة عشية تولي الأمير شرف الدين مودود حكمها سنة ٥٠٢ هـ ، بفضل ما عرف به من تمسك بفكرة الجهاد والتصدي للتحدي الاوربي الذي بات يهدد مناطق واسعة في اقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام .

استبسال الطرابلسيين في الدفاع عن مدينتهم :

لم تتمكن القوات التي أرسلها السلطان محمد في فك الحصار عن طرابلس بسبب انشغال قائدها الأمير مودود بتنفيذ أمر السلطان بانتزاع ولاية الموصل من الأمير جاولي الذي خرج على طاعة السلطان . في الوقت الذي صعد الغزاة من هجماتهم ضد طرابلس وأحكموا الحصار حولها مع بداية شعبان من سنة ٥٠٢ هـ وقطعوا عنها الاتصال تماماً من البر والبحر ، وأسندوا أبراجهم على أسوارها . ويروي المؤرخون أن أهل طرابلس أظهروا شجاعة نادرة واستماتوا في الدفاع عن مدينتهم ، وذكروا ان بعض أهل الصناعات من رجال طرابلس ابتكر طريقة تهدف الى احراق الأبراج الصليبية ، وهي طريقة عربية أثبتت جدواها عندما حاصر الغزاة مدينة صور سنة ٥٠٥ هـ ، غير ان أبراج العدو تكاثرت على أسوار طرابلس ، في الوقت الذي أخذ الاسطول الجنوبي يحكم حصاره حولها من ناحية البحر ليمنع وصول المساعدات الى أهلها ، غير ان هذه الظروف لم تزدهم سوى الاصرار على مواجهة التحدي ورفض الاستسلام على الرغم مما كانوا يعانونه من ضيق وشدة . فأبوا الاستجابة لنداء حاكم طرابلس من قبل الفاطميين الذي دعاهم الى فتح أبواب المدينة في وجه الغزاة مما دفعه الى أن يأخذ الأمان لنفسه وحاميته من العدو وخرج الى دمشق . .

ومضت أيام تصاعدت خلالها هجمات الغزاة على سور طرابلس وانتهزوا حالة الارتباك الداخلي التي سببها رحيل حاكم المدينة ورجال الحامية الفاطمية ، وقاموا بهجوم شامل انتهى

باحتلالهم المدينة في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ . ويعلق المؤرخ ابن الأثير على ما فعله الغزاة بأهل طرابلس بقوله : « ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة ودور العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يحصى ، فان أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارة » .

« حلب تستنجد ببغداد » :

كان رضوان حاكم حلب قد انتهز فرصة انشغال الغزاة في التصدي لقوات الموصل التي استهدفت تحرير الرها فقام بمهاجمة بعض الحصون والقلاع التي سبق أن انتزعها الغزاة في منطقة شمال الشام ، فلما انتهى هجوم قوات الموصل عاد تنكريد حاكم انطاكية لينتقم من رضوان ، فاستولى على حصن الأثارب وأحدث به مذبحة رهيبة ، ثم زحف الى (زردنا) الواقعة غرب مدينة حلب وفعل بأهلها مثل ما فعل بأهل الأثارب ، ولم يكتف بذلك فحسب بل راح يفرض الأتاوات على امراء المدن المجاورة ، ويصف المؤرخ ابن الأثير حالة أهل الشام آنذاك فيقول : فعظم خوف المسلمين منهم ، وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا باستيلاء الفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه ، فشرع أصحاب البلاد الاسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الفرنج من الاجابة إلا عن قطيعة يأخذونها الى مدة يسيرة » . .

ثم أقدم الغزاة على قطع الطريق البحري بين مصر

والشام ، كما منعوا التجارة ما بين العراق ومصر والحجاز ، فضلاً عن استيلائهم على العديد من مدن وموانىء الساحل الشامي ، مما زاد في تقطيع أوصال هذه المنطقة وقطع الصلة بين سكانها ، وهكذا لم يجد أهل حلب أمامهم سوى التطلع نحو بغداد عاصمة الدولة العربية الاسلامية ومركز الخلافة العباسية ، فخرجت جماعات منهم مستنفرين فوصلوا بغداد في شهر شعبان من سنة ٥٠٤ هـ/شباط ١١١١ م ، وفي أول جمعة منه دخلوا جامع السلطان « فاستغاثوا وانزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا . . . وعاودوا في الجمعة التالية المسير الى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذاك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب » . وقد أظهر الخليفة المستظهر بالله العباسي اهتماماً بالغاً بهذا الأمر وأرسل الى السلطان محمد داعياً إياه الى ضرورة الاسراع في توجيه العساكر نحو الشام .

استئناف الحملات ضد الغزاة :

أولى حاكم الموصل الأمير شرف الدين مودود اهتماماً خاصاً بإمارة الرها التي أقامها الغزاة في الحوض الأوسط من نهر الفرات فجعلها هدفاً لعملياته العسكرية لما كان يعلمه من خطورة قيام هذه الامارة التي كانت تشكل تهديداً مباشراً لخطوط المواصلات بين الموصل وحلب ، وبين بغداد وآسيا الصغرى ، وانطلاقاً من هذه الأهمية فقد تجددت الحملات العسكرية التي شارك فيها بعض

امراء المدن المجاورة في اقليم الجزيـرة الفراتيـة والتي استهدفت تحجيم دور الغزاة في المنطقة والحيلولة دون توسعهم شرقاً ، على ان أهم النتائج التي حققتها هذه الحملات في هذا السياق هو الانتصار الكبير الذي أحرزته ضد ملوك الفرنج وامرائهم في الشام خلال المعـركة التي دارت رحـاها قـرب مـدينـة طبـريـة أواخـر سنـة ٥٠٦هـ/١١١٣ م والتي انهزم فيهـا الفرنـج الصليبيون هـزيمـة نكـراء ، وقتل منهم عـدد كبير ، ووقـع الملك بلدوين الأول في الأسر ، غير انه لم تعرف شخصيته فأخذ سلاحه واطلق سراحه .

تصاعد حركة النضال ضد الغزاة :

لم تنقطع المعارك والمناوشات بين العرب والغزاة الصليبيين منذ أن وطئت أقدام هؤلاء أرض الشام ، إلا أن تلك المعارك لم تسفـر عن نتائـج حاسمـة ، وقد ظـل الأمر كـذلك حتى تـولى عماد الدين زنكي حكم امارة الموصل عام ٥٢١ هـ/١١٢٧ م ، حيث بدأت صفحة جديدة من صفحات النضال ضد الاحتلال الاوربي الصليبي ، وترجع أهمية هذه المرحلة الى السياسـة التي اعتمدها زنكي في ادارة الصراع ضد الغزاة والتي تمحورت حول قيام جبهة موحدة تكون قاعدة لعملياته العسكرية القادمة .

شرع عماد الـدين في العمل عـلى تثبيت امارتـه وتعزيـز امكاناتها الاقتصاديـة والعسكريـة وتوحيـد ما يمكن تـوحيده من الامارات الصغيرة في المنطقة التي كانت تقف حجر عثرة يحول دون امكانية القيام بعمل حاسم ضد قواعد الغزاة في اقليم الجزيـرة

الفراتية وبلاد الشام ، وقد استطاع زنكي أن يضم العديد من هذه الامارات والمدن ويجعلها جزءاً من امارته التي أضحت أقوى الامارات العربية الاسلامية في المنطقة آنذاك .

تحقيق الوحدة بين الموصل وحلب :

في سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م نجح عماد الدين زنكي في تحقيق انجاز عظيم على طريق وحدة الجبهة المقاتلة بتوحيد حلب والموصل ، وقد ترتب على هذا الانجاز الوحدوي نتائج خطيرة على مستقبل الوجود الاوربي الصليبي في منطقة شمال الشام واقليم الجزيرة . لما يمكن أن ينجم عنه من قطع الصلة بين امارة الرها من ناحية وبقية الامارات الصليبية من ناحية اخرى ، فضلاً عما يتضمنه من معاني القوة التي لم يشعر بها العدو حتى ذلك الوقت بسبب ما كان تعاني منه المنطقة من الفرقة واختلاف في المواقف ، وقد لقي عماد الدين ترحيباً بالغاً من أهالي حلب الذين خرجوا لاستقباله معبرين عن سرورهم العظيم وأملهم الكبير في انقاذهم من خطر الغزاة وتهديدهم المتواصل لهذه المدينة التي كانت على وشك السقوط بأيديهم ، وقد أشار المؤرخ ابن الأثير الى أهمية دخول حلب في حوزة عماد الدين فقال : « ولولا ان الله تعالى مَنَّ على المسلمين بولاية الشهيد ـ يقصد به عماد الدين ـ لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه » ، وقد اتبع عماد الدين هذا الانجاز بخطوة اخرى عززت نفوذه في بلاد الشام تمثلت بضم مدينة حماة في السنة التالية أي ٥٢٣ هـ/١١٢٩ م .

الفصل الثاني

عماد الدين والتحدي الصليبي

استعد عماد الدين زنكي لمنازلة الغزاة الفرنج بعد أن اطمأن الى قوة مركزه وصلابة جبهته ، فقرر الشروع بمهاجمة المواقع الصليبية التي تشكل تهديداً مباشراً على مدينة حلب ، وفي مقدمتها حصن الأثارب الذي لم يكن يبعد عنها سوى خمسة عشر كيلومتراً ، وبلغ من شدة مضايقة هذا الحصن لأهل حلب أن الفرنج المرابطين به قاسموهم على (رحا) بظاهر باب الجنان بينها وبين البلد عرض الطريق ، وقد تحدث المؤرخ ابن الأثير عن أهمية هذا الحصن فقال انه كان (أضر شيء على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج ما بين حرب وحرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هو من أخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين في نحورهم) .

وحين بلغ الغزاة حصار عماد الدين لهذا الحصن ، أسرعوا الى حشد قوات كبيرة لمواجهته ، فاستشار زنكي أصحابه الذين لاحظوا كثافة جيش العدو وتفوقه عليهم بالعدة والعدد ، فأشاروا عليه بضرورة الانسحاب وعدم التورط بمنازلة الغزاة وقالوا : (ولقاء الفرنج في بلادهم خطر لا يدرى على أي شيء تكون العاقبة) ، غير ان عماد الدين لم يأخذ برأيهم ، مؤكداً عزمه على

ملاقاة الغزاة وإظهار قوته وشدة بأسه . فقد أدرك أن الانسحاب في هذه الظروف سيعده العدو ضعفاً والضعف هزيمة ، ستدفع بالغزاة الى تحقيق المزيد من المكاسب على حساب الأرض العربية ، وهو ما عبر عنه بقوله : (ان الفرنج متى رأونا قد عدنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثرنا وخربوا بلادنا ، ولا بد من لقائهم) ، ولم ينتظر ان يصل العدو الى حيث ترابط قواته بل أسرع لمنازلتهم بعيداً عن الأثارب وخطب في رجاله موضحاً لهم أهمية هذه المعركة وقال : (هذا أول مصاف ـ لقاء ـ عملنا معهم ، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبة في قلوبهم) ، وخاضت قوات الموصل معركة ضارية انتهت بانتصار كبير حققه عماد الدين على الغزاة الذين لقي الكثير منهم مصرعه ، كما وقع العديد من قواتهم في الأسر ، وأسرع زنكي بعدها الى حصن الأثارب فاقتحمه عنوةً ، وقتل وأسر معظم رجال حاميته ، ثم « أمر بتخريبه وسواه بالأرض » .

ويعدّ المؤرخون تحرير زنكي لحصن الأثارب نقطة البداية في استرجاع شمال الشام من الغزاة الفرنج ، الذين اضطروا الى تغيير ستراتيجيتهم التي كانت تقوم على الهجوم الى الدفاع ، بعد أن أدركوا قوة عماد الدين زنكي التي فرضت وجودها على الساحة العسكرية ، وهو أمر لم يألفوه من قبل بسبب الظروف التي كانت سائدة في المنطقة قبل أن يتولى عماد الدين المسؤولية ويصور المؤرخون حال الفرنج بعد سقوط حصن الأثارب بتركيز جهودهم على الدفاع (وصار قصارى همهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع) . ويرى بعض الباحثين ان عماد الدين

استهدف من هذه المعركة زرع الخوف واشاعة الرعب بين صفوف الغزاة كمقدمة للشروع بعمليات عسكرية واسعة النطاق ضد قواعدهم في الجزيرة وشمال الشام ، وان تحرير الأثارب ضرورة اقتضتها ستراتيجية الدفاع عن مدينة حلب والتفرغ لاستكمال توحيد الجبهة المقاتلة وإرساء اسسها .

هزيمة الفرنج ووقوع ملوكهم في الأسر :

عاد عماد الدين زنكي الى الموصل بعد الانتصار الذي أحرزه على الغزاة في حصن الأثارب حيث أمضى أربع سنوات قام خلالها بتنظيم شؤون دولته استأنف بعدها الحرب ضد الفرنج . وكان هدفه هذه المرة قلعة بارين (بعرين) وهي احدى القلاع المهمة القريبة من مدينة حماه التي كانت تتحكم في الطريق المؤدية جنوباً الى حمص ، فضلاً عن أهميتها في حماية طرابلس من الجهة الشمالية الشرقية . وقد أثار تحرك عماد الدين نحو هذه القلعة ذعر ريموند الثاني أمير طرابلس الذي أدرك فداحة النتائج التي سوف تترتب على سقوط هذه القلعة بيد زنكي ، فبادر الى حشد امكاناته المادية والبشرية في الوقت نفسه الذي وجه فيه نداء استغاثة الى ـ فولك ـ ملك بيت المقدس ، فأسرع الأخير لنجدته على رأس قوات كبيرة ، وهكذا أصبح على زنكي أن يواجه قوات مملكة بيت المقدس وامارة طرابلس مجتمعة ، ويبدو أنه كان على اطلاع تام بتحركات الفرنج ، فاستعد لتسديد ضربة مفاجئة بقواتهم قبل أن يصلوا الى بعرين ودارت معركة كبيرة بين الطرفين

انتهت بانتصار عماد الدين وهزيمة أعدائه وأسر الكثيرين منهم وفي مقدمتهم ريموند الثاني أمير طرابلس أما الملك فولك فقد أسرع في الهرب من ميدان المعركة وتحصن بقلعة بعرين وارسل من هناك مستنجداً بالقوى الصليبية في بلاد الشام . أما زنكي فقد واصل زحفه متعقباً الفارين من المعركة وشدد الحصار على القلعة ونصب عليها عشرة منجنيقات استمرت بضربها ليلاً ونهاراً ومنع دخول الأقوات ، ثم باشر رجاله بإحداث ثغرة في السور ، مما اضطر الملك فولك الى ارسال مبعوث الى زنكي يعلن استعداده لقبول أية شروط يفرضها عليه نظير اطلاق سراحه واعطاء الأمان لأصحابه المحاصرين داخل القلعة ، وكانت دهشته كبيرة حين لم يطلب زنكي سوى تسليمه القلعة ودفع مبلغ خمسين الف دينار فقط ، وبذلك دخلت بعرين ضمن دائرة نفوذ عماد الدين زنكي ، مما أتاح للأخير ممارسة الضغط ضد امارتي انطاكية وطرابلس ومنع الفرنج من التوغل في وادي نهر العاصي الأعلى ، كما أتاح له سقوط القلعة أيضاً توفير الحماية لمدن الشام الشمالية وفي مقدمتها حمص وحماه . ويبدو ان قرار زنكي هذا له علاقة بالأنباء التي اشارت الى وصول جيش بيزنطي بقيادة الامبراطور حنا كومنين في شهر آب من عام ١١٣٧ م/٥٣٢ هـ .

العرب في مواجهة التحدي البيزنطي الفرنجي :

واجهت الامة العربية سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧ م خطراً مشتركاً من جانب البيزنطيين والفرنج في بلاد الشام . ولا بد لنا

من إعطاء فكرة موجزة عن الظروف التي أدت الى تحالف بيزنطة مع الفرنج ، حيث ان أباطرة بيزنطة كانوا يطمعون الى ضم مدينة انطاكية الى حظيرة الدولة البيزنطية ، فلما تولى الامبراطور يوحنا الثاني (١١١٨ ـ ١١٤٣) عمل على استرداد المناطق الجنوبية الشرقية لآسيا الصغرى تمهيداً لانتزاع انطاكية من الفرنج ، فأعد لهذا الغرض جيشاً كبيراً ضم صفوة جنوده وفرسانه ، وتمكن من اختراق آسيا الصغرى واحتلال المدن الرئيسة الثلاث في سهول قيليقية وهي : طرسوس وأذنة والمصيصة ، فضلاً عن بعض الحصون القريبة من تل حمدون ، ثم لم يلبث أن استولى على الاسكندرونة وقام بتحصين مينائها ، وأصبح بذلك وجهاً لوجه أمام أنطاكية ، التي لم يكن في وسع أميرها ريموند الصمود في وجه الجيش البيزنطي الضخم مما اضطره الى الاستنجاد بالملك فولك ـ ملك بيت المقدس ـ الذي فضل آنذاك الاسراع الى مساعدة أمير طرابلس لمواجهة الهجوم الذي قام به عماد الدين زنكي ضد حصن بعرين وما تبع ذلك من هزيمة الفرنج . وهكذا لم يجد ريموند أمامه سوى التحصن داخل انطاكية ومقاومة الحصار الذي فرضه الامبراطور البيزنطي ، غير ان حصانة انطاكية وقوة حاميتها سرعان ما أرغمت الأخير على تغيير خططه فآثر التفاوض مع ريموند الذي أقسم يمين الولاء للامبراطور واتفقا على القيام بحملة عسكرية مشتركة حددت أهدافها بتحطيم قوة عماد الدين زنكي واحتلال شيزر وحمص وإقامة امارة صليبية جديدة تضم (حلب) و (شيزر) و (حمص) و (حماه) يتولى ريموند حكمها على ان يتنازل الأخير عن انطاكية لتعود الى حظيرة الدولة البيزنطية .

ومع حلول ربيع عام ١١٣٨ م زحفت جموع البيـزنطيـين والفرنج نحو حلب وتمكنوا من احتلال حصن بزاعة الواقع بينها وبين منبج ، وقد أشار المؤرخ ابن الأثير الى هذه الحملة والفزع الذي أحدثه الغزاة في بلاد الشام وقال : (في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، خرج ملك الروم من القسطنطينية ، ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهما من أنواع النصارى ، فقصد الشام ، فخافه الناس خوفاً عظيماً ، وكان الشهيد ـ زنكي ـ مشغولاً لا يمكنه مفارقة الموصل ، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها ، وهي عـلى مرحلة من حلب وفتحهـا عنوة ، فقتـل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان) . ثم اتجهت جيوش الغزاة الى الأثارب وكان أهلها قد أخلوها على اثر سماعهم باقتراب الخطر بعد ان (طرحوا النار في خزائنهم) فاستـولى الامبراطـور عليها بسهولة ووضع بها الأسرى مع حامية رومية صغيرة ثم تابع زحفه نحو ناحيـة (معرة النعمـان) . وكان الغـزاة يحرصـون على أن لا تصل أخبار هذه الحملة الى أهل حلب ، إلا أنه حدث ما ليس في الحسبان وذلك حين نجح عدد من الأسرى في الهرب من قلعة الأثارب واتجهوا مسرعين الى حلب وأخبـروا الأمير سـوار نائب زنكي على المدينة بقلة عدد الحامية الرومية في الأثارب ، فقام سوار بهاجمة الحامية وتمكن من انقاذ الأسرى وعاد بهم الى حلب .

أما الغزاة فقد تابعوا زحفهم جنوباً واحتلوا معرة النعمان وكفرطاب في شعبان من سنة ٥٣٢ هـ ، ثم واصلوا التقدم نحو شيزر القريبة من حماة التي تحتل أهمية ستراتيجية بوصفها أهم مدن حوض العاصي الأوسط فصمم الامبراطور على احتلالها مهما كلفه

ذلك من تضحيات ، وهكذا كان على مدينة شيزر ان تواجه هذا التفوق العددي الهائل من الغزاة الذي قال عنهم مؤرخ حلب ابن العديم أنهم كانوا (في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ومعهم من الكراع والسلاح ما لا يحصيه إلا الله) ، ولم يكن أمام أمير شيزر سلطان بن منقذ سوى الاستنجاد بعماد الدين زنكي الذي كان آنذاك معسكراً قرب حمص ، فبادر الى إيقاف عملياته العسكرية وشرع في التقدم نحو شيزر لمواجهة الحلف البيزنطي الفرنجي ونزل بقواته على ضفة نهر العاصي ، ولا شك في أن زنكي أدرك تفوق أعدائه فاعتمد خطة تقضي بعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة ، ما لم تتوفر لديه من أسباب القوة ما يحقق له النصر على العدو ، وقام بإرسال وفد من قبله الى بغداد لطلب النجدة من السلطان مسعود .

على أن ظهور زنكي على رأس عساكر الموصل قرب شيزر كان عاملاً مشجعاً لحامية هذه المدينة على الصمود والاستبسال في الدفاع ومقاومة الحصار الذي فرضه عليها الغزاة ، وفي الوقت نفسه صعد عماد الدين من تحديه للغزاة واشاعة الرعب بين صفوفهم ، مظهراً قدرته على منازلتهم ، حتى أنه أرسل الى الامبراطور البيزنطي يطلب اليه ترك مواضعه والتقدم للقتال الذي سيتقرر على نتيجته مصير شيزر ، وكان زنكي يستهدف من هذه المناورة زعزعة الثقة بين صفوف الجيش الامبراطوري وحمله على الانسحاب ، وقد نجحت خطة زنكي هذه ، من خلال رفض الامبراطور طلب قادة جيشه مهاجمة زنكي مبدياً مخاوفه مما يبيته الأخير لهم وقال : (أتظنون أنه ليس له من العسكر إلا ما ترون !

انما هو يريد أن تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له) .
وهكذا جعل زنكي خصمه يعتقد بأنه سوف يواجه جيوشاً جرارة فيما اذا تورط في إشعال الحرب ، ولم يكتف زنكي بذلك بل عمل على تصديع جبهة عدوه وإيقاع الفرقة وبذر الخلاف بين المتحالفين الذين لم تتوفر لديهم النيات الحسنة تجاه بعضهم البعض ، فالفرنج كانوا يطمعون أن تكون البلاد لهم وبأيديهم ، ولايريدون أن تفرض بيزنطة نفوذها ووصايتها على كياناتهم في الشام ، فاستغل عماد الدين زنكي هذه المواقف لصالحه ، وأرسل الى الامبراطور البيزنطي يخوفه من الفرنج ويشككه في صدق نواياهم ، وانهم في سبيل التخلي عن هذا الحلف الذي سوف لن تكون نتائجه في خدمة مصالحهم وأهدافهم في بلاد الشام ، كما قام زنكي أيضاً بتحذير الفرنج من أطماع الامبراطور وتطلعه الى فرض نفوذه على المنطقة وإلحاقها بأراضي الدولة البيزنطية وأرسل اليهم يقول : (اذا ملك ـ الامبراطور ـ حصناً بالشام فلن يكون لهم مقام في تلك البلاد) . وقد أفلحت سياسة زنكي هذه وظهرت لها نتائج سريعة في تصديع معسكر الأعداء ، حيث أعلن كل من أمير الرها وأمير انطاكية عن عدم رغبتهما في مشاركة الامبراطور في الهجوم على شيزر ، ووقفت قواتهما موقف المتفرج من العمليات التي يقوم بها الجيش البيزنطي .

أما عن موقف السلطان السلجوقي من هذه الأحداث ، فيبدو انه لم يظهر حماساً لنجدة عماد الدين في بادىء الأمر ، إلا ان ثورة أهل بغداد وتظاهرهم وقت صلاة الجمعة أحرج السلطان مسعود وأظهره بمظهر المتقاعس عن القيام بواجبه أمام الخطر الذي

يتهدد البلاد ، فأمر باعداد حملة سريعة ، كما أبدى الأراتقـة في اقليم الجزيرة الفراتية استعدادهم بإرسـال حملة من خمسين ألف رجـل ، والواقـع ان عماد الـدين زنكي لم يكن يـرغب بمجيء السلطان الى بلاد الشام لأن ذلك يتعارض مع سياسته الرامية الى إغلاق المنطقة أمام نفوذ الأخير وعدم جذب جيوشه الى هناك ، إلا ان ضرورة الدفاع عن الشام والتصدي لمخططات الغزاة هو الذي أملى على زنكي طلب المساعدة من السلطان ، فلما تـأكد لأمـير الموصل فشل الحلف البيزنطي الفرنجي واستعـداد الامبراطـور لـلانسحاب نحـو انـطاكيـة ، أرسـل الى السلطان يلغي طلب المساعدة ويخبره بفشل الغزاة في تحقيق أهدافهم .

ولم يكد الغزاة ينسحبون من اقليم شيزر حتى أرسل جزءاً من قواته لاستعادة كفرطاب ، في حين تولى بنفسه مهاجمة حصن عـرقة وتمكن من تحـريره وأسـر من فيه من الفـرنـج ، ثم أمـر بتخريبه ، وتقدم في العام التالي ٥٣٣ هـ لطرد الغزاة من حصن بزاعة فاجتاحه عنوة وقتـل معظم من فيـه من الفرنـج والروم ، كما نجح في استرداد حصن الأثارب في صفر من السنة نفسها ، وبذلك ضـاعت جميع المكـاسب التي حققتها الحملة البيـزنطيـة الفـرنجية بفضـل شجاعـة عمـاد الـدين وبـراعتـه العسكـريـة والسياسية ، وكان من أهم النتائج التي أسفرت عن هذه الحملة تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيـين في الشام ، وعـدم امكانية القيام بعمل مشترك مستقبلاً .

وقد أحدث انسحاب الغزاة عن شيزر موجة من الفرح بين أهالي الشام وبخاصة أهل حماة ، فأكثر الشعراء في مدح القـائد

عماد الدين زنكي ، وممن مدحه المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي الذي قال فيه من قصيدة أولها :

بعزمك أيها الملك العظيم
تذل لك الصعاب وتستقيم

موقف زنكي من تحالف حكام دمشق مع الفرنج :

كنا قد ذكرنا أن ستراتيجية زنكي في النضال ضد الغزاة تعتمد أساساً على توحيد الجبهة العربية الاسلامية في اقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام تحت قيادته ليضمن حتمية الانتصار على العدو الذي حقق اختراقاته داخل الوطن العربي بفضل التجزئة والانقسام اللذين كانا يسودان المنطقة آنذاك ، وانطلاقاً من هذا الموقف ، كان لا بد لعماد الدين أن يتطلع الى ضم دمشق بوصفها أكبر وأقوى الامارات في بلاد الشام ، وبدأت محاولاته لتحقيق هذا الهدف منذ سنة ٥٢٤ هـ فقام بعدة حملات عسكرية غير انه لم ينجح في فرض نفوذه على هذه المدينة بسبب ما دأب عليه حكامها من اتباع سياسة التقارب تارة والتحالف تارة اخرى مع القوى الصليبية في المنطقة لارغام زنكي على عدم التعرض لدمشق حتى لو أدى ذلك الى تقديم التنازلات للغزاة ، كما انهم كانوا يستعينون بالخليفة العباسي ليتدخل في الوقت المناسب ويحمل زنكي على الانسحاب . كما حدث في سنة ٥٢٩ هـ .

وبعد نجاح عماد الدين زنكي في تحرير عدد من القلاع والحصون في بلاد الشام ، عاود محاولاته الرامية الى ضم دمشق ،

فتوجه صوب حمص التي كانت تقف في طريق زحفه لتحقيق هدفه ، فحاصرها حصاراً شديداً إلا انه اضطر الى رفع الحصار لمواجهة التحالف البيزنطي الفرنجي الذي انتهى بالفشل وعودة الامبراطور عن شيزر .

على أن زنكي لم يلبث أن عاد مجدداً الى الشام وشرع بمحاصرة حمص ثم جرت بينه وبين شهاب الدين محمود بن بوري أمير دمشق مفاوضات انتهت بتسليمه حمص على أن يتنازل زنكي عن حصن بعرين وبعض القلاع الصغيرة الاخرى ، وكان زنكي قد عرض الزواج من (زمرد خاتون) والدة شهاب الدين في رمضان من سنة ٥٣٢ هـ/حزيران ١١٣٨ م فكان هذا الزواج من الأسباب التي ساعدت على توقيع الاتفاق المذكور ، كما أقدم زنكي على تزويج ابنته من شهاب الدين محمود توثيقاً للعلاقة بينه وبين آل طغتكين بدمشق .

غير ان شهاب الدين هذا لم يلبث ان لقي مصرعه بدمشق في شهر شوال من العام التالي (٥٣٣ هـ) على أيدي عدد من رجال حاشيته الذين كانوا يطمعون في السلطة ، مما دفع والدته زمرد خاتون التي كانت مقيمة آنذاك في حلب الى استصراخ زنكي ليثأر لولدها ويتسلم دمشق وتشير أصابع الاتهام في تدبير هذا الحادث الى معين الدين أنر كبير امراء دمشق الذي سارع بتنصيب جمال الدين محمد بوري أميراً على دمشق متخطياً في ذلك بهرام شاه الذي كان أكبر من أخيه محمد سناً ، مما جعل بهرام يلجأ الى زنكي وينضم الى جبهته . وأسرع الأخير بالزحف نحو دمشق ليحسم الامور هناك ، وكان معين الدين أنر وأصحابه قد استعدوا للأمر

بعــد سمــاعهم بــزحف زنكي نحــوهم واتخــذوا سلسلة من الاجـراءات التي تضمن صمود المـدينة في وجـه الحصار الـذي سيفـرضه زنكي عليهـا ، وقد أشـار كـل من مؤرخ دمشق ابن القلانسي وابن الأثير الى التدابير التي اتخذها حكام دمشق الذين أكثروا من الذخائر ، ولم يتركوا شيئاً مما يحتاجون اليه إلا وبذلوا الجهـد في تحصيله ، وأقامـوا ينتـظرون وصـولـه اليهم ، إلا ان عماد الدين عمد الى تغيير خطته إذ عدل عن دمشق وواصل زحفه نحو بعلبك التي كانت تابعة لامارة دمشق ، فوصلها في العشرين من ذي الحجة من سنة ٥٣٣ هـ وشرع بمحاصرتها ، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ، وسرعان ما استسلمت المدينة وفتحت أبوابها في وجهـه ، فـرتب امـورهـا وعـينّ نجم الـدين أيـوب ـ والـد صلاح الدين ـ والياً عليها . ثم غادرها صوب دمشق ، فنزل في البقاع ، وقبل أن يبدأ هجومه أرسل الى جمال الدين محمد يقترح عليه ان يختار أي مدينة اخرى تعويضاً له عن دمشق غير ان الأخير لم يوافق على ذلك ، وقد ذكر ابن القلانسي أن جمال الدين كان قد آثر الدخول في هذا الأمر لما فيه (من الصلاح وحقن الدماء وعمارة الأعمال وسكون الدهماء) إلا ان معين الدين وأصحابه منعوه من ذلك ، ولم يلبث جمال الدين ان توفي في شعبان من سنة ٥٣٤ هـ ، وتم تنصيب ولده أبي سعيد آبق بن محمد ، وكان زنكي قد شدد حصاره حول دمشق فور سماعه بنبأ وفاة أميرها جمال الدين محمد أملاً في استثمار الموقف لصالحه ، وأمام إصرار زنكي على مواصلة الحصار توجـه معين الـدين أُنر بـطلب المساعـدة من الصليبيين وأرسل سفارة الى فولك ملك بيت المقدس يعرض عليه عشرين

ألف دينار في كل شهر ويعده بالاستيلاء على بانياس وتسليمها له . وحذر من مغبة التهاون في أمر زنكي الذي بات يهدد وجودهم في بلاد الشام كلها (وانه إن ملك دمشق يملك بيت المقدس ولا يترك لهم بلداً بالساحل) . ويشير المؤرخ الانكليزي رنسيمان نقلاً عن وليم الصوري ان الفرنج في بيت المقدس (قد تزايد ادراكهم لما انطوى عليه تفاقم قوة زنكي من تهديد لهم ، فلما دعا فولك مجلسه للانعقاد للنظر في العرض الذي بذله أنر ، ساد الشعور بأنه لا بد من قبوله) .

وهكذا تحرك الفرنج صوب اقليم الجليل في نيسان من سنة ١١٣٩ م رمضان من سنة ٥٣٤ هـ ، وتقدموا بحذر ليعسكروا بالقرب من طبرية ، فلما علم زنكي بذلك بادر الى رفع الحصار عن دمشق كي لا يقع بين شقي الرحى ـ الفرنج وحكام دمشق ـ وأسرع لمواجهة قوات الملك فولك قبل ان تقترب من دمشق ، فتقدم ناحية حوران ، وقد أرهبت خطوة زنكي الجريئة هذه الغزاة فلم يجرؤوا على التقدم شمالاً لمواجهته فانتظر أياماً دون جدوى ، وظن الفرنج أنه قد ابتعد بقواته ، غير ان زنكي ما لبث أن عاد الى مهاجمة دمشق وأوغلت قواته في الاغارة حتى بلغت أسوارها ، ثم اضطر بعد ذلك للانسحاب شمالاً نحو حمص بعد ان علم ان الفرنج في طريقهم لنجدة حليفهم معين الدين أنر ، فاستغل الملك فولك الفرصة ومضى مع أنر لحصار بانياس التي صمدت في وجه الحصار بضعة أشهر ، ثم حدث ان خرج حاكمها من قبل زنكي الأمير ابراهيم بن طرغت للاغارة على المراكز الصليبية المنتشرة على الساحل قرب صور ، فتعرض لهجوم مفاجىء من قبل ريموند أمير

انطاكية الذي كان قد خرج للانضمام الى قوات فولك ملك بيت المقدس ، فحلت الهزيمة بأصحابه ولقي مصرعه ، واجتمع على حصار بانياس كل من الملك فولك وريموند ومعين الدين أنر ، وكانت بدون أمير بعد وفاة ابراهيم ، فاضطر أهلها الى التسليم . وأوفى معين الدين أنر بوعده للغزاة وقام بتسليم المدينة اليهم ، فدخلها الملك فولك ، وتم تنصيب رينيه بروس حاكماً عليها ، وإمعاناً في الخيانة قام أنر بزيارة الملك فولك في بلاطه بعكا ، فبالغ الأخير في استقبالة والحفاوة به ، ثم توجها سوية الى حيفا وبيت المقدس (وجرت الرحلة في جو يسوده أعظم ما يُتصور من النية الصادقة) ، وهكذا أدى تحالف حكام دمشق مع المحتلين الغزاة الى تعطيل خطة عماد الدين زنكي الرامية الى إحكام الطوق وتضيق الخناق حول قلاعهم ومراكز نفوذهم في بلاد الشام وإقليم الجزيرة .

تحرير الرها ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م :

كانت الرها أول إمارة لاتينية أنشأها الغزاة الفرنج خلال الحملة الصليبية الاولى عام ١٠٩٧ م/٤٩١ هـ في القسم الشمالي من إقليم الجزيرة الفراتية ، وتحكمت في الطريق التجاري المهم الذي يمتد بمحاذاة نهر الفرات الى الرقة ومنها يتفرع الى طريقين : أحدهما يتجه الى انطاكية شمالاً ويسير الآخر جنوباً نحو دمشق .

وتكمن أهمية هذه الامارة بخطورة موقعها الجغرافي ، واتساع مساحتها وعظمة تحصيناتها ، فكانت بمثابة خط دفاعي

بالنسبة للامارات الصليبية تحول دون قيام جبهة موحدة بين مدن وامارات إقليم الجزيرة وشمال الشام ، وقد أشار المؤرخ ابن الأثير الى الخطر الناجم عن وجود الفرنج في الرها فقال ان (ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم وشرهم اليها جسيم ، إذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها) كما أشار أيضاً الى امتداد نفوذها وسيطرتها على مواقع عديدة من الجزيرة فقال : « وانضاف اليها عدة من البلاد ، فاتسعت مملكتهم ، واشتدت على أهلها وطأتهم فملكوا من نواحي ماردين الى الفرات عدة حصون ، كسروج وألبيرة ، وجملين ، والموزر ، والقرادي ، وسن أبي عطير ، وغير ذلك ، وكانت غاراتهم تبلغ آمد من ديار بكر ، وماردين ، ونصيبين ، ورأس العين ، والرقة) .

والواقع ان امارة الرها كانت من أهم المواقع الصليبية في الجزيرة الفراتية وشمال الشام ، فقد أدى قيام هذه الامارة الى تهديد خطوط المواصلات بين الموصل وحلب من جهة وبين بغداد وآسيا الصغرى من جهة اخرى ، وقد تنبه امراء الموصل الذين سبقوا عماد الدين زنكي الى خطورة قيام هذه الامارة ، فجعلوها هدفاً لعملياتهم العسكرية منذ وقت مبكر حيث تعرضت الى أول حصار في عهد قوام الدولة أبي سعيد كربوقا سنة ١٠٩٨ م الذي كان آنذاك في طريقه لانقاذ انطاكية ، فلم يشأ الزحف نحوه ومن ورائه جيش بالرها يهدد جناحه الأيمن ويقطع عليه الاتصال بقاعدته في الموصل ، فمكث على حصارها مدة ثلاثة أسابيع ، غير انه لم يتمكن من اقتحامها بسبب ما كانت تتمتع به من قوة

وحصانة .

كذلك قام الأمير شمس الدولة جكرمش بمهاجمة الرها سنة ١١٥٤ م/٤٩٧ هـ ، ولم يحقق هو الآخر أي نصر يذكر ، وبعد أن تولى الأمير شرف الدين مودود حكم الموصل ، أولى امارة الرها اهتماماً خاصاً وجعلها في مقدمة أهدافه ، فجاءت حملته الاولى سنة ٥٠٣ هـ/ ١١١٠ م وشاركه في ذلك قوات من ماردين وخلاط وميا فارقين فأطبقت قواته على الرها في شوال من السنة المذكورة ، مما أثار فزع حاكمها بلدوين دي بورج الذي هرع الى طلب النجدة من بلدوين الأول ملك بيت المقدس الذي أسرع لنجدته مصطحباً معه(برترام) حاكم طرابلس وبعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ ياسيل ، غير ان مودود قرر فجأة الانسحاب عن الرها في محاولة لاستدراج الفرنج بعيداً عن قواعدهم ، وتمكن من احراز النصر على جموعهم التي كانت تستعد لعبور الفرات الى الجهة اليمنى .

ثم تعرضت امارة الرها مرة اخرى للحصار الذي فرضه عليها حاكم الموصل آقسنقر البرسقي في ذي الحجة من عام ٥٠٨ هـ /ربيع ١١١٤ م ، غير ان الفرنج استطاعوا مقاومة هذا الحصار الذي استمر أكثر من شهرين .

وعندما آل حكم الموصل الى عماد الدين زنكي سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧ م عقد العزم على مواصلة الكفاح ضد الغزاة واستئصال وجودهم من أرض الجزيرة وبلاد الشام ، وقد شغلت امارة الرها حيزاً كبيراً من اهتمامه فجعلها في مقدمة أهدافه لما كان يعلمه من خطورة موقعها ودورها في تعطيل واعاقة سياسته الرامية

الى توحيد الجبهة المقاتلة في اقليم الجزيرة الفراتية وشمال الشام ، فضلاً عن ان الغزاة قد اتخذوا من هذه القاعدة نقطة انطلاق لشن هجماتهم ضد المناطق المجاورة وإشاعة الخوف والقلق بين صفوف المواطنين في هذا الاقليم .

غير ان عماد الدين الذي عرف بدهائه ومقدرته العسكرية لم يقدم على مهاجمة الرها إلا بعد ان يطمئن الى سلامة مركزه وقوة جبهته ، وامتلاك أسباب القوة التي تضمن له تحقيق أهدافه .

وقد بدأ زنكي في تنفيذ الخطوات الاولى التي سوف تمهد له الطريق الى الرها عندما قام بشن سلسلة من الهجمات ضد المواقع والحصون الصليبية المحيطة بهذه الامارة ، فتمكن في سنة **٥٣٧ هـ** من تحرير قلعة جملين وموزر وتل موزن وغيرها من المواقع في اقليم شبختان ، وقد أثمرت هذه الخطوات عن اتساع نفوذ زنكي ومتاخمته لامارة الرها وانتزاع بعض توابعها ، مما أتاح له تطويقها والتضييق عليها من أغلب الجهات . ولا شك في أن هذا الوضع الجديد قد أسهم في إضعاف موقف الغزاة في هذه الامارة ومهد لسقوطها بيد زنكي الذي كان يمثل آنذاك أكبر قوة عسكرية تشكل تهديداً للوجود الصليبي في المنطقة بأسرها بفضل إيمانه العميق بضرورة تحرير كل شبر من الأرض العربية التي وطئتها أقدام الغزاة المحتلين .

وفي الوقت الذي كان عماد الدين زنكي يستعد فيه لتنفيذ هجومه الحاسم ضد الرها ، كانت هذه الأخيرة تعاني من القلق وعدم الاستقرار بسبب سياسة حاكمها الجديد جوسلين الثاني

الذي لم يكن كسلفه بلدوين دي بورخ حيث عرف بالانسياق وراء العواطف والأهواء وعدم امتلاكه دراية سياسية كافية ، مما جعل علاقاته بامراء الفرنج سيئة ، وفي مقدمتهم ريموند بواتييه حاكم انطاكية حيث وصل النزاع بينهما حد القطيعة ، ولم يعد أي منهما يهتم بما يتعرض له الآخر من خطر بسبب أطماع كل منهما بأملاك الطرف الثاني .

الهجوم على الرها :

وفي خريف عام ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م أكمل البطل عماد الدين زنكي استعداداته لبدء هجومه الكبير المنتظر ضد الغزاة في الرها ، فوضع خطة عسكرية محكمة تعتمد على خداع العدو وإيهامه ، فتظاهر بأن مدينة آمد ستكون هدفاً لحملته هذه ، وكانت هذه المدينة تخضع للأراتقة الذين بلغه أنهم قد تحالفوا مع جوسلين الثاني ، فاطمأن الأخير بأن الرها سوف لن تكون هدفاً لهجوم زنكي وقرر مغادرة إمارته متوجهاً الى قلعة تل باشر الواقعة غربي نهر الفرات وكان جوسلين يرمي من وراء هذه الحركة قطع الاتصال بين زنكي ومدينة حلب والحيلولة دون وصول الامدادات التي قد يحتاجها الأخير خلال عملياته العسكرية في ديار بكر ، وكان عماد الدين قد بث العيون لموافاته بتطور الأحداث في الرها ورصد تحركات جوسلين الثاني ، فلما أخبروه بمغادرة الأخير الامارة الى تل باشر ، أسرع في التوجه نحو الرها ، وأرسل يستدعي العساكر من المناطق المجاورة ، فانهالت عليه جموع المتطوعين ،

وفي حركة سريعة أحاطت قوات عماد الدين بالرها من جميع جهاتها ، وشددت الحصار حولها ، (وحالوا بينها وبين من يدخل اليها بميرة أو غيرها) ، وكان زنكي قد عمد الى مراسلة أهل الرها قبل أن يشرع بهجومه وعرض عليهم الأمان ، ودعاهم الى فتح أبواب مدينتهم لئلا يضطر الى تدمير أسوارها واقتحامها عنوة ، غير ان دعوته هذه قوبلت بالرفض .

وحين علم جوسلين الثاني بأنباء الهجوم ضد إمارته ظل مرابطاً بتل باشر ، وأرسل الى القوى الصليبية في الشام يدعوها الى الاسراع لانقاذ الرها ، فرفض ريموند أمير انطاكية المشاركة في قتال زنكي خوفاً على نفسه وانتقاماً من جوسلين الذي كانت تربطه وإياه علاقات سيئة ، أما (ميلز أند) الوصية على عرش مملكة بيت المقدس فقد بادرت الى عقد مجلس للتشاور حول هذا الأمر ، وتمت الموافقة على ضرورة الاسراع بحشد جيش لانقاذ الرها من السقوط بيد عماد الدين زنكي ، وكان جوسلين خلال ذلك قد قام بمحاولة فاشلة لادخال بعض قواته الى مدينة الرها ، فكان جند زنكي لهم بالمرصاد ، بفضل يقظة زنكي الذي كان يتولى بنفسه الاشراف على كل شيء ويقف على تفاصيل المعركة بكل صفحاتها .

ولم يكن عماد الدين زنكي بغافل عن تحركات جوسلين ونداءاته الى زعماء الصليبيين في بلاد الشام ، لذلك رأى ان المصلحة تقتضي الاسراع بحسم المعركة قبل أن تصل النجدات الى الرها ، فبذل النقابون جهوداً كبيرة أفلحت في احداث بعض الفجوات في أسوار المدينة ، وتمكنوا من الوصول تحت أساس

أبراج السور ، ووضعوا الأخشاب في فجوة كبيرة فأشعلوا النيران فيها ، فانهار السور في الحال ، وأصدر زنكي أوامره الى قواته باقتحام المدينة في اليوم السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ/٢٣ كانون الأول ١١٤٤ م ، ولم يبق هناك سوى حامية القلعة التي لم تلبث أن أعلنت استسلامها بعد يومين فقط ، وقام القس اليعقوبي (برصوما) باجراءات تسليم الرها الى البطل المجاهد عماد الدين زنكي فأمر في الحال بايقاف القتال والكف عن ملاحقة الغزاة داخل المدينة وتخريب منشآتها .

والواقع ان عماد الدين زنكي قد وجد ان المصلحة ومقتضيات السياسة تقتضي بضرورة الابقاء على المدينة وعدم الحاق الأضرار بها وبسكانها ليضمن ولاءهم وقد تأكدت سياسته هذه من خلال تعامله مع المسيحيين المحليين من السريان والأرمن ، فقد خصهم برعايته وأمر جنده بعدم الاعتداء عليهم أو التعرض لممتلكاتهم ، وتقدم اليهم (برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال الى بيوتهم ، واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره) وسمح لمن سبق أن غادر المدينة منهم بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له من قبل الصليبيين الغزاة بالعودة الى مدينتهم كما سمح لهم بالاحتفاظ بكنائسهم . واكتفى بتدمير كنائس الغزاة ليمحو كل أثر لهم في الرها . وأشاع الاطمئنان في نفوس السكان (وعاد البلد الى حاله الأول) ، ثم قرر زنكي الرحيل تاركاً حامية صغيرة من الجند للدفاع عن المدينة .

استثمر عماد الدين انتصاره الباهر في الرها وشرع في

مهاجمة المدن والحصون التابعة لها شرقي الفرات ، فنجح في تحرير سروج التي ولت حاميتها هاربة أمام قوات زنكي ، ثم ما لبثت باقي الحصون المجاورة أن سقطت هي الاخرى تباعاً فكان عماد الدين (لا يمر بعمل من أعمالها ، ولا معقل من معاقلها ، إلا سلم اليه في الحال ، ثم توجه نحو قلعة ألبيرة الواقعة على شاطىء الفرات الشرقي ، التي تعد من أهم الحصون المتبقية بيد جوسلين حصانة ومناعة . فجد في حصارها ، وقطع المؤن عنها ، فأشرفت على الاستسلام ، إلا ان زنكي اضطر الى رفع الحصار والعودة الى الموصل بعد ان بلغه خبر مقتل نائبه نصير الدين جقر ، فانتهز أهل ألبيرة الفرصة وبادروا الى تسليم مدينتهم الى حسام الدين تمرتاش الأرتقي أمير ماردين ، بعد أن أدركوا عجزهم عن الصمود في وجه زنكي فيما اذا عاد لمهاجمة ألبيرة .

اهمية تحرير الرها بالنسبة لمستقبل الكيان الصليبي في بلاد الشام :

كان سقوط الرها أول ثغرة نفذ منها العرب المسلمون الى باقي المدن والقلاع التي احتلها الصليبيون في بلاد الشام ، كما أنها تعد أول صدع كبير أصاب أساس البناء اللاتيني في مشرقنا العربي ، وبسقوطها أصبح الاتصال مأموناً بين الموصل وحلب ، فقد كانت هذه الامارة اللاتينية بمثابة خط دفاع ضد العمليات العسكرية التي تنطلق من الموصل بالاضافة الى دورها التخريبي ضد مدن وإمارات العرب المسلمين المنتشرة في اقليم الجزيرة

الفراتية وديار بكر ، كما أن تمركز الغزاة الفرنج في هذا الموقع الستراتيجي المهم بين العراق والشام قد أدى الى تعطيل الأهداف التي يسعى زنكي الى تحقيقها في المنطقة والتي تتمحور حول توحيد القوى المقاتلة في وجه الغزاة الطامعين .

وكان دخول عماد الدين زنكي للرها قد أحدث ردة فعل عنيفة بين صفوف الفرنج في الشام وأدى الى اشاعة الخوف والذعر بينهم ، وكان وقعها شديداً على أهل انطاكية التي سارع أميرها ريموند الى القسطنطينية طالباً الصفح من الامبراطور مانويل ومقدماً ابنته زوجة له .

أما في أوربا فقد كان لاسترداد الرها صدى عميق بسبب ما كانت تتمتع به هذه الامارة من مكانة دينية من جهة ولكونها الامارة الاولى التي أقامها الغزاة الفرنج خلال الحملة الصليبية الاولى ، مما دعا البابا يوجين الثالث Eugene III الى الطلب من هنري السابع ملك فرنسا لمساعدة الصليبيين في بلاد الشام ، فأرسل الأخير الى البابا بياناً رسمياً يتضمن الاعلان عن قيام حملة صليبية جديدة نحو الشرق وذلك سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م .

عودة عماد الدين زنكي للنضال ضد الفرنج :

كان عماد الدين قد اضطر لايقاف عملياته العسكرية ضد معاقل الغزاة غربي الفرات بسبب الأحداث التي شهدتها الموصل آنذاك ، فترك حصار قلعة ألبيرة وعاد مسرعاً الى مقر ولايته لتقرير الامور هناك ، حيث تم تعين زين الدين علي نائباً له على قلعة الموصل خلفاً لنصير الدين جقر بن يعقوب الذي لقي مصرعه على

يد الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود ، وكان الأخير مقيماً في الموصل فاستغل وجود عماد الدين على حصار ألبيرة بعيداً عن الموصل فقام بقتل نائبه في محاولة لانتزاع البلاد من يد زنكي .

وما ان فرغ عماد الدين من تقرير الأوضاع في ولايته حتى عاد الى مواصلة جهاده ضد الفرنج ، وكان قد بلغه اجتماعهم عند انطاكية استعداداً للزحف صوب الرها لاعادة سيطرتهم عليها ، فأسرع عماد الدين بتوجيه جيش (وافر العدد تمكن من إنزال الهزيمة بهم في رمضان عام ٥٣٩ هـ) ، وذكر المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي أن جند زنكي (استولوا على كثير من الافرنج قتلاً وأسراً واشتملوا على جملة وافرة من كراعهم وتحكم السيف في أكثر الراجل وتفرقوا في أعمالهم ومعاقلهم مفلولين مخذولين خاسرين) .

وفي جمادى الاولى من السنة التالية ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م أعد زنكي حملة عسكرية كبيرة زودها بعدد من المنجنيقات وآلات الحصار ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى القول بأن دمشق كانت هدفاً لهذه الحملة ، إلا ان تطور الأحداث في مدينة الرها جعلت زنكي يغير خطته ويصدر أوامره بالزحف نحو هذه الأخيرة للقضاء على المؤامرة التي دبرها قسم من العملاء الذي راسلوا جوسلين الثاني ودعوه الى الحضور للقضاء على الحامية التي تركها زنكي في الرها ، فتمكن الأخير من إفشال هذه المؤامرة وألقى القبض على المتآمرين وأمر باعدامهم .

وكانت هذه الحملة آخر نشاط لعماد الدين زنكي ضد معاقل الغزاة الفرنج في اقليم الجزيرة الفراتية وشمال الشام ، عاد بعدها الى مقر ولايته .

الموصل وحلب في مواجهة التحدي الصليبي

كان استشهاد عماد الدين زنكي في سنة ٥٤١ هـ إيذاناً بانقسام دولته بين ولديه سيف الدين غازي في الموصل والجزيرة الفراتية ، ونور الدين محمود في حلب وما جاورها من بلاد الشام . إلا أن ذلك لم يكن حائلاً دون استمرار التعاون بين الموصل وحلب بحكم روابط الاسرة الواحدة التي كانت تتولى الحكم في البلدين ، واشتراكهما في الهدف وهو النضال ضد الغزاة الصليبيين واستئصال شأفتهم من بلاد الشام .

وانطلاقاً من وحدة الأهداف والمصير المشترك خاضت جماهير الامة العربية معارك بطولية على أرض الشام تجسدت خلالها وحدة القوى المقاتلة من أجل تحرير الوطن من آثار الغزو الأجنبي . وكانت فاتحة ذلك النضال المشترك هو الدفاع عن دمشق سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م ، التي تعرضت آنذاك لحصار الغزاة الذين تجمعت قواتهم عند طبرية ومنها واصلوا الزحف عن طريق بانياس الى الغوطة ، ثم شرعوا بمهاجمة دمشق في ربيع الأول من السنة المذكورة وقد تمكنت قوات العدو من احتلال بعض المراكز والقوى الأمامية خارج سور دمشق مثل : المزة والربوة ، وأمام هذه الظروف الحرجة اضطر حاكم دمشق معين الدين انر الى طلب النجدة من القوى العربية المجاورة وفي مقدمتها امارة الموصل ، فلم يتردد سيف الدين غازي من تلبية نداء الواجب المقدس

فسارع الى حشد امكانات امارته المادية والبشرية وأرسل الى حاكم دمشق يقول : (قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي) .

وعبرت قوات الموصل نهر الفرات باتجاه حلب حيث اجتمع سيف الدين مع أخيه نور الدين محمود الذي أبدى استعداده للانضمام الى هذه الحملة ، فسارا بقواتهما نحو دمشق ونزلا في حمص ، وقبل ان يواصل سيف الدين تقدمه أرسل الى معين الدين انر يطلب اليه تسليم دمشق الى أحد نوابه حتى ينتهي القتال ويرحل الفرنج عن المدينة ثم يعيدها اليه . وقد عبرت هذه الرسالة عن مخاوف أمير الموصل من معين الدين الذي عرف بارتباطاته ومحالفاته مع الفرنج في مملكة بيت المقدس ضد القوى الاسلامية في المنطقة ، لذلك كله أوضح سيف الدين لصاحب دمشق انه لا بد له من الحصول على ضمان بسلامة قواته التي ستحارب الفرنج فقال : (. . . فان أنا جئت اليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فان أردت أن ألقاهم واقاتلهم فتسلم البلد الى من أثق اليه ، وأنا أحلف لك ان كانت النصرة لنا على الفرنج انني لا آخذ دمشق ولا اقيم فيها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود الى بلادي) .

اتضحت سياسة معين الدين وظهر على حقيقته ، بعد تسلمه رسالة سيف الدين ، فجعل هدفه الوحيد المحافظة على نفوذه في دمشق لا سيما انه كان يعلم علم اليقين مدى كراهية أهل

دمشق له وتطلعهم للخلاص منه ، فتجاهل الرد على سيف الدين وماطله ، وشرع في الوقت نفسه في مساومة الصليبيين مستخدماً تهديد صاحب الموصل لهم سلاحاً يرغمهم بوساطته على الرحيل عن دمشق فأرسل يقول : (ان ملك الشرق قد حضر ـ يقصد بذلك سيف الدين ـ فان رحلتم وإلا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون) ، ثم عمد الى استثارة مخاوف الصليبيين القدامى في الشام من قدوم هذه الحملة الصليبية الجديدة فخاطبهم : (بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا ، وأنتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا فان رأيت الضعف عن حفظ البلد وسلمته الى سيف الدين ، ، وأنتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام) .

ونجحت خطة معين الدين فأجابوه انهم سيتخلون عن الصليبيين الوافدين ، فبذل لهم بانياس مكافأة لهم ، وذكر المؤرخون ان الصليبيين القدامى اجتمعوا الى الغزاة الوافدين وخوفوهم من عساكر الموصل وحلب وكثرة الامدادات اليها ، وكانت هذه العساكر قد لعبت دوراً كبيراً في بث الرعب بين صفوفهم ، فاضطروا للرحيل عن دمشق وترك الحصار ، وهكذا أسهمت قوات الموصل وحلب بطريق غير مباشر في انقاذ دمشق وإرغام الفرنج على التراجع وقد بقيت هذه القوات مرابطة في حمص حتى تم انسحاب قوات الفرنج كافة . وشاركت فرقة من عساكر الموصل الموجودة في حمص في فتح حصن العريمة مع قوات حلب ، وشددوا الحصار حول الحصن المذكور ، فاضطر الفرنج للتسليم ومن جملتهم (برتران) صاحب الحصن ووالدته .

وعـادت الفرقـة الى حمص ومن هنـاك قفلت عـائـدة الى الموصل ، وفي أوائـل سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م أسهمت المـوصل بمعارك التحرير التي تدور رحاها فوق أرض الشام ، عندما هاجمت حصن ـ أتب بالتعاون مع قوات حلب ، وفرقة من جند دمشق ، وقد تمكنت هذه القوات من إلحاق الهزيمة بالصليبيين ، فلم ينج منهم إلا نفر قليل وكان من بين القتلى (البرنس ريموند صاحب انطاكية) مما شجع المسلمين على مهاجمة حصن ـ أفـاميه فـطلب أهله الأمان وسلموا البلد في ربيع الأول سنة ٥٤٤ هـ .

وفي عهد قطب الدين مودود الذي خلف أخاه سيف الدين غازي في الحكم شاركت قوات الموصل في الحملة التي أعدها نور الدين محمود ضد الفرنـج في الشام وذلـك بقصد اشغـالهم عن مساعدة عموري الأول (ملك بيت المقدس) وليخفف الضغط على قائده أسد الدين شيركوه الذي أرسله نور الدين الى مصر في هذه المدة . وانضمت الى عساكر الموصل وحلب قـوات ماردين بقيادة الامير نجم الدين البي وفخر الدين قرأ أرسـلان صاحب حصن كيفا . واجتمعت على حصار (حارم) . وكان الصليبيون قد جمعوا شملهم لمواجهة الموقف وحشدوا طاقاتهم فسارع للدفاع عن حارم كل من : بوهيمند الثالث أمير انطاكية ، وريموند الثالث أمير طرابلس ، وقسطنطين كولومـان حاكم قيلقيـة البيزنـطي ، وتوروس الثاني الأمير الأرمني بالاضافة الى جمـاعات الاسبتـارية والداوية ، وتحركوا بـاتجاه حـارم . وكانت قـوات المسلمين قـد ضربت حولها الحصار ونصبت عليها المجانيق ، فقرر نور الدين رفع الحصار والتراجع الى ارتاح في محاولة لاستدراج الصليبيـين

وابعادهم عن قواعدهم ، وتم فعلاً تحرك الصليبيين في اثـر نور الـدين فوصلوا منـطقـة (عم) ، إلا أنهم لم يلبثـوا أن عـاودوا أدراجهم الى حارم ، فتبعهم المسلمون ودارت بين الفريقين معركة عنيفة في رمضان من سنة ٥٥٩ هـ/آب ١١٦٤ م ، كان النصر فيها حليف نور الدين فقتل بضعة آلاف من الفرنج واسر معظم امرائهم وسيقوا أسرى الى حلب ، ولم ينج منهم سـوى ثوروس الأرمني وأخيه ملح وتلا هذه المعركة سقوط حارم في ٢١ رمضان من السنة المذكورة وانتشرت قـوات المسلمين في أعـماء انطاكيـة فأسرت عدداً من أهلها ، ثم عادت عساكر الموصل الى بلادها .

استمـرت الموصـل وحلب في مواصلة النضـال فسرعـان ما اجتمعت قواتها على مهـاجمة طـرابلس مستغلة في ذلك سـوء الأوضاع فيها بعد وقوع أميرها ريموند الثالث في الأسر في معركة حـارم ، وقد شـرعت قوات البلدين بمهـاجمة النـواحي المحيطة بحصن الأكـراد ، ثم اتجهت بعدهـا الى الشمـال الشـرقي من طرابلس ونزلت على قلعة (عرقة) ، وحاصرت قلعة جبلة فتم تدميرها ، وواصلت هذه القوات انتصاراتها فاستولت على حصني العريمة وصافيتا ، عاد بعدها قطب الدين مودود ونور الدين محمود الى حمص حيث صاما شهر رمضان ثم اتجها الى بانياس وقصدا قلعة جونين فخربا سورها ، ثم عزما على دخول بيروت إلا أنهما عدلا عن ذلك بسبب تبرم الجند ورغبتهم في التفرق بعد اشتراكهم في معارك عديدة استمرت بضعة أشهر . ولم يلبث قطب الدين ان توفي في الموصل في سنة ٥٦٥ هـ وانتهت بوفاته صفحة رائعة من صفحات النضال المشترك بين المـوصل وحلب وخلف قـطب

الدين ولده سيف الدين غازي الثاني الذي وقع تحت نفوذ وزيره فخر الدين عبدالمسيح الذي تحكم بامور الدولة مما دفع نور الدين محمود الى التدخل والحفاظ على ارث أخيه ، فدخل الموصل في ١٣ جمادى الاولى سنة ٥٦٦ هـ بعد أن أخضع في طريقه سنجار ، وأقر ابن أخيه سيف الدين على الموصل وجزيرة ابن عمر ، وأمر ببناء الجامع النوري وأقطع نصيبين والخابور لامراء عسكره ثم عاد الى الشام .

وأرسل نور الدين الى الخليفة العباسي المستضيء يطلب تقليده بما بيده من بلاد مصر والشام والجزيرة والموصل والبلاد التي دخلت في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد قلج وارسلان فوافق الخليفة على ذلك وأرسل اليه التقليد بحكم هذه البلاد .

وكان آخر مشاركة لعساكر الموصل في النضال ضد الفرنج في الشام في عصر نور الدين في سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م عندما شرع نور الدين بمهاجمة (عرقة) فخرب ربضها ، وأرسل بعض العساكر الى حصن صافيتا والعريمة ، فاستولت عليهما عنوة ، ثم توغلت قوات الموصل والشام داخل امارة طرابلس مدمرة ما كانت تقابله من مراكز عمرانية .

وفي شوال من سنة ٥٦٩ هـ توفي نور الدين محمود بدمشق ودفن في المدرسة التي أنشأها عند سوق الخواصين .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية للفصلين الأول والثاني

أ - المصادر العربية :

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، القاهرة ١٩٦٣ .

البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ١٩٠٠ .

الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، لاهور ١٩٣٣ .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ .

الذهبي : تاريخ دول الاسلام ، حيدر آباد ١٣٦٤ هـ .

ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر آباد ١٣٥٨ هـ .

ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٩٠٩ .

ب - المراجع العربية الحديثة :

د. حسن أحمد محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ، مصر ١٩٧٣ .

د. رشيد الجميلي : دولة الأتابكة في الموصل ، بيروت

. ١٩٧٠
د. رشيد الجميلي : امارة الموصل في العصر السلجوقي ، بغداد ١٩٨٠ .
د. رشيد الجميلي : دراسات في تاريخ الخلافة العباسية ، الرباط ١٩٨٤ .
د. حسن حبشي : نـور الـدين والصليبيـون ، مصـر ١٩٤٨ .
د. حسن حبشي : الحملة الصـليبيـة الاولى ، مصـر ١٩٥٨ .
د. عماد الدين خليـل : عمـاد الـدين زنكي ، بيـروت ١٩٧١ .
د. سهيل زكار : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، بيروت ١٩٧٣ .
د. عبدالعزيز سالم : طرابلس الشام في العصر الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٧ .
د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، ج ٢ القاهرة ١٩٦٣ .
د. جـوزيف نسيم يوسف : العـدوان الصليبي والـرأي العام الغربي ، الاسكندرية ١٩٦٨ .
مجلة المـورد ، العدد الخـاص عن غزو الفـرنجة ـ المجلد السادس عشر بغداد ١٩٨٧ .

ج - المراجع الأجنبية :

1. Anna Commnena, The Alxiad, English. Trans London 1969.

2. Cahen (Claud) : L'a Syrie du' Nord, al epoque Croisades Paris 1940

3. Setton: A history of the Crusades 1958.

الفصل الثالث

صلاح الدين والتحدي الصليبي :

يعد صلاح الدين الأيوبي واحداً من الأبطال الذين خلدهم التاريخ العربي الاسلامي بفضـل الانتصارات التي تحققت عـلى يديه ضد الغزاة الصليبيين خلال الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

والواقع ان سيرة صلاح الدين الأيوبي انطوت على عناصر مناقبية كبيرة ، مما أضفى بدوره صفة فريدة على انتصاراته الرائعة ضد الغزاة ، فقد كان صلاح الدين مخططاً ستراتيجيـاً وتكتيكياً جيداً حقق بفضلهما نتائج عظيمة على طريق التحرير . ولا شك في أن نجاح صلاح الدين في مهمته هذه يعود الى ايمـانه العميق بضرورة تحرير الأرض العربية من الغزاة المحتلين ، مستلهـماً في ذلك روح الأجداد العظام وبعث قيمهم الأخلاقية العليا وتفانيهم من أجل الدفاع عن الوطن والمبادىء . وقد استطاع خلال سنوات قلائل بناء قوة ضاربة قادرة على الانطلاق صوب معاقل الغـزاة بزخم متراكم ، وكان صلاح الدين ملهماً لجميع العناصر والقوى التي تم حشدها في ميادين القتال .

إعداد الامة لمواجهة التحدي :

انصرف صلاح الدين خلال السنوات الممتدة من ٥٧٠ هـ - ٥٨٢ هـ للعمل على تحقيق أهدافه الستراتيجية في بناء دولة موحدة قوية تكون على مستوى التحديات التي كانت الامة العربية تواجهها خلال هذه المرحلة ، من تاريخ نضالها ضد الغزاة . وانطلاقاً من هذه الأهداف حرص صلاح الدين على ضرورة حشد طاقات الامة وإمكاناتها المادية والبشرية والانتقال بها من حالة التمزق والانقسام الى الوحدة وبعث الروح النضالية لدى أبنائها ، وقد وجد صلاح الدين أن الابقاء على الكيانات الصغيرة المتعددة التي كانت تتوزع بلاد الشام واقليم الجزيرة الفراتية سوف لن يخدم الهدف الذي كان يسعى الى تحقيقه ، فعمل على إدخال هذه الكيانات في دائرة نفوذه محققاً بذلك وحدة مقاتلة ضمت مصر والشام والعراق قادرة على خوض المعركة الفاصلة ضد المحتلين .
وقد عبر صلاح الدين عن سياسته هذه من خلال الرسالة التي بعث بها الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله بعد تسلمه مدينة حلب وجاء فيها : (ولا نختار إلا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوها ، ولو أن امور الحرب تُصلحها الشِّرْكة لَما عزَّ عليَّ أن يكون كثير المشاركين ، ولا أساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما امور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة ، فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة) .

وقد بذل صلاح الدين جهوداً كبيرة لتحقيق جبهة متحدة تتصدى لمخططات الغزاة الذين باتوا يسيطرون على مناطق واسعة في بلاد الشام ، وفي نهاية عام ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م أصبحت دولة صلاح الدين تمتد من بلاد النوبة واليمن جنوباً الى تخوم الشام الشمالية شمالاً ومن برقة غرباً الى الموصل وإقليم الجزيرة الفراتية شرقاً تحظى بتأييد الخلافة العباسية ببغداد ، وثقة جماهير الامة التي تتطلع الى تحرير أرضها وحماية حقوقها وتراثها الانساني الخالد .

وخلال مرحلة الاعداد العسكري هذه لم يهمل صلاح الدين الناحية العسكرية التي حرص على توظيفها لخدمة المعركة القادمة . فعمل على عزل الغزاة في الشام من خلال اقامة علاقات سياسية وتجارية مع القوى المعادية في الخارج كالبنادقة والبياشنة والجنويين ، وقد كان لهذا الاجراء أثره الواضح في ازدهار النشاط التجاري مع هذه القوى ، كما توصل صلاح الدين الى عقد معاهدة مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثاني سنة ٥٨١ هـ/١١٨٤ م . وقد أدت هذه المعاهدة الى تدهور العلاقة بين الصليبيين والبيزنطيين .

كما شهد عام ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م نهاية الصراع مع أتابكة الموصل حيث تم عقد الصلح بين صلاح الدين وعز الدين مسعود أمير الموصل الذي أعلن بموجب هذا الصلح تبعيته السياسية لصلاح الدين وخطب له على جميع منابر بلاده ، وأن يضع امكاناته المادية والبشرية في خدمة حركة التحرير .

وهكذا وضع صلاح الدين الغزاة على أبواب كارثة محققة ،

إذ لم يسبق أن واجهوا جبهة متحدة خلال الست عشرة سنة الماضية ، والذي كان خلاله الاختلاف السياسي قائماً بين امراء الشام والجزيرة والموصل ، طالما بقي هذا الاختلاف ، اطمأن الفرنج الى سلامتهم .

ومنذ أواخر سنة ١١٨٣ م بدأت عمليات صلاح الدين ضد المحتلين تتصاعد بشكل ملحوظ ، وكان حصن الكرك في مقدمة الأهداف التي تعرضت لهجمات متتالية قادها صلاح الدين بنفسه ، فذكر ابن الأثير (حصر الحصن من الربض وتحكم عليه في القتال ، ونصب عليه سبعة مجانيق لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً) مما اضطر ارناط (ريجنالد شاتيل) الى الاستنجاد بملكة بيت المقدس ، فأسرع بلدوين لتلبية ندائه على رأس جيش يقوده ريموند الثالث أمير طرابلس ، فرفع صلاح الدين الحصار بسبب حصانة القلعة غير ان صلاح الدين ما لبث ان عاد مرة اخرى لحصار الكرك ، وشاركت في القتال فرق من مصر والشام واقليم الجزيرة وحاول اغراء العدو للخروج بعيداً عن الحصن المذكور دون جدوى ، فرحل عائداً الى دمشق وأمر قسماً من قواته بالاغارة على اقليم الجليل والأراضي الواقعة الى الجنوب حتى نابلس ، لم يجد الغزاة أمام تصاعد هجمات صلاح الدين سوى التطلع نحو الغرب الاوربي أملاً في ارسال حملة صليبية كبيرة ، فذكرت المصادر الغربية أنهم أرسلوا وفداً ضم كلاً من : هرقل بطريرك بيت المقدس وورمبرلي موليني مقدم الاسبتارية وارنولد توروبا مقدم الداوية لاقناع الامبراطور فردريك الأول والملك هنري الثاني لارسال حملة جديدة لانقاذ بيت المقدس من المصير

الذي ينتظرها على يد صلاح الدين غير ان هذه المحاولة لم تسفر عن نتائج مهمة كما ذكرت تلك المصادر حيث لم يتخذ الصليبية إلا عدداً قليلاً من الفرسان .

ولم يلبث بلدوين الرابع أن توفي في آذار/مارس ١١٨٥ م وتم تنصيب بلدوين الخامس ملكاً على بيت المقدس تحت وصاية ريموند الثالث كما عهد الى جوسلين الثالث دي كورتناي بالاشراف على الملك الصغير الذي لم يكن يتجاوز السادسة من عمره . وقيل ان ريموند خشي ان يموت الملك الذي كان يعاني من تدهور في صحته فيتهم عند ذلك بقتله .

ويبدو ان الغزاة قد قطعوا الأمل في وصول حملة صليبية كبيرة في الوقت المناسب وبسبب الظروف التي كانت تحيط بمملكة بيت المقدس ، أيقنوا أنهم ليس بوسعهم الصمود أمام صلاح الدين ، فوافق البارونات المجتمعون في بيت المقدس على اقتراح ريموند الثالث بضرورة الالتماس من صلاح الدين لعقد هدنة بين الطرفين أمدها أربع سنوات (١١٨٥ م - ١١٨٩ م) . غير ان بلدوين هذا توفي بعد بضعة أشهر في عكا أواخر شهر آب/اغسطس من عام ١١٨٦ م فتفجر النزاع بين الطامعين في المملكة إلا ان جوسلين اخت بلدوين الرابع - وزوجها جاي لوزينان . على ان ريموند الثالث عدّ تتويج جاي هزيمة له ، فأسرع للاتصال بصلاح الدين عارضاً عليه صداقته وولاءه وملتمساً مساعدته على منافسيه وأعدائه وقد أشار المؤرخ ابن الأثير الى ذلك فذكر ان بلدوين راسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به ،

وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج .

واغتنم صلاح الدين هذه الفرصة كي يزيد من شقة الخلاف بين الغزاة المحتلين فأمد ريموند بقوة من الجند فكان ذلك من أسباب رفض ريموند دعوات الصلح والمساعي التي جرت للتوسط بينه وبين جاي لوزينان واستمر العداء بينهما حتى سنة ١١٨٧ م .

هزيمة الغزاة في حطين

كان صلاح الدين يتأهب لمنازلة الغزاة ويتطلع الى الوقت المناسب الذي يختاره لبدء هجومه الكبير ، غير انه كان متمسكاً بالمعاهدة التي سبق ان عقدها مع ريموند الثالث وبقية الامراء سنة ١١٨٥ م/٥٨٣ هـ ولم يطل انتظار القائد فقد جاءت الفرصة المناسبة حين أقدم ارناط (ريجنالد شايتون) امير الكرك المعروف بالغدر والخيانة اوائل عام ١١٨٧ م/٥٨٣ هـ على نقض الهدنة على اثر مهاجمته لقافلة تجارية كبيرة قادمة من مصر في طريقها الى دمشق في حراسة عدد من الجند فانقض عليها وقتل حراسها وحمل التجار والأموال والأمتعة الى الكرك .

ولما بلغ صلاح الدين أرسل الى ارناط مستنكراً هذا التصرف وداعياً اياه الى إعادة ما استولى عليه من الأموال وإطلاق سراح الأسرى إلا ان ارناط رفض الاستجابة لطلبه . كما لم يلتفت لنداء الملك جاي لوزينان ، كان صلاح الدين آنذاك مقيماً بدمشق ، فبادر الى اتخاذ الاجراءات والاستعداد لاعطاء الغزاة

درساً قاسياً يضع حداً لوجودهم في الشام . فأرسل يستدعي العساكر من مختلف أقاليم دولته ، وكتب الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة وأربل وغيرها من بلاد الشرق ، والى مصر وسائر بلاد الشام ، ثم غادر دمشق في المحرم سنة ٥٨٣ هـ/مارس ١١٨٧ م متجهاً الى الجنوب فنزل في رأس الماء الى الشمال الغربي من جدران حيث ترك ولده بهذا الموضع في فرقة من عسكر دمشق على أمل وصول باقي العساكر من الأطراف ، أما هو فقد تقدم الى قصر السلام القريب من بصرى ليمنع ارناط من التعرض لقوافل الحجاج القادمة من الأراضي المقدسة فوصلت بسلام . وذكر بعض المؤرخين ان (ست الشام) اخت صلاح الدين كانت ضمن قوافل الحجاج مع ولدها محمد بن عمر لاجين ، ويبدو ان ارناط كان قد أعد خطة تقضي بقطع الطريق أمام العساكر المصرية لمنعها من الانضمام الى جيش صلاح الدين إلا ان خطته هذه لم يكتب لها النجاح ، اذ لم يكد صلاح الدين يطمئن على وصول الحجاج حتى أمر بالتقدم في اتجاه الطريق الذي سلكته العساكر القادمة من مصر ، فالتقى بها بالقرب من الكرك وبذلك انقلب الموقف لصالح صلاح الدين حيث اتيحت له حرية الحركة في وادي الاردن وشرع بشن غارات مدمرة على حصني الشوبك والكرك . وبعد هذه السلسلة من العمليات عاد صلاح الدين الى دمشق ، ثم خرج ثانية بعد شهرين باتجاه عشترا بحوران حيث قام باستعراض قواته هناك فتولى قيادة القلب بنفسه . وجعل تقي الدين عمر على الميمنة ،

ومظفر الدين كوكبوري على الميسرة وتقدم بعدها الى ثغر الاقحوان يوم الجمعة ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ/٢٦ حزيران ١١٨٧ م . فأقام بهذا الموضع خمسة أيام أرسل خلالها بعض قواته لترصد حركات العدو وحجم قواته في المنطقة . قرر بعدها اجتياز نهر الاردن فعسكر في التلال الواقعة على مسافة خمسة أميال الى القرب من بحيرة طبرية عند كفرسبت . وكان صلاح الدين يهدف الى اخراج العدو لقتاله ، إلا أنهم لم يتركوا مواضعهم .

وهنا رأى القائد صلاح الدين ارسال قسم من قواته الى اقليم عكا وكانت تتألف من سبعة آلاف رجل بقيادة مظفر الدين كوكبوري ، وكان لا بد لهذه القوة من اجتياز اقليم الجليل ، فاستأذن صلاح الدين ريموند الثالث بحكم المعاهدة المعقودة بين الطرفين ، ولم يجد الأخير بداً من الموافقة رغم احساسه بحراجة الموقف . واشترط على صلاح الدين الالتزام بعدم الاضرار بالمدن والقرى التي تقع في طريق قواته ، كما طلب ان يجتاز الحدود بعد طلوع النهار والعودة قبل حلول الظلام ، وأصدر أوامره للسكان بالبقاء داخل أسوارهم طوال اليوم .

وجرت بين قوات صلاح الدين وفرسان الداوية والاسبتارية معركة ضارية عند عين كريسون - قرب الناصرة - أوائل شهر أيار ١١٨٧ م انتهت بمصرع مقدم فرسان الداوية ، كما لقي مقدم الاسبتارية مصرعه مع عدد كبير من أبرز الفرسان ولم ينج من هذه المعركة سوى ثلاثة أشخاص كان جيرار مقدم الداوية أحدهم ، وعلى أثر هذه الكارثة أسرع ريموند الثالث لتقديم ولائه للملك والملكة سيبل وأعلن نقضه للمعاهدة التي عقدها مع

صلاح الدين ، على اثر هذه الأحداث أعلن جاي التعبئة العامة وتقدم الجميع صفورية قرب عكا .

وخلال هذه الظروف تجلت مهارة القائد صلاح الدين العسكرية ، فما ان علم باجتماع العدو من صفورية حتى بادر الى وضع ستراتيجية تقوم على حمل الغزاة على ترك مواضعهم والزحف نحو طبرية ، فعمد الى مهاجمة طبرية بجزء من جيشه فنجح باقتحامها ، واضطر من بقي على قيد الحياة من رجال حاميتها الى الاعتصام بالقلعة مع زوجة ريمون الثالث التي أرسلت اليه تخبره بسقوط المدينة .

وهكذا نجحت خطة صلاح الدين وحققت أهدافها ، فقد أحدث سقوط طبرية هلعاً كبيراً بين صفوف الغزاة المحتشدين عند صفورية فعقدوا مجلساً للحرب في عكا لدراسة الموقف ورأى فريق منهم : الاسراع بالزحف نحو طبرية ومنازلة صلاح الدين ، وكان ارناط يتزعم هذا الفريق ، الفريق الثاني وفيه ريموند الثالث فقد رأى البقاء عند صفورية التي تتمتع بموقع جغرافي ممتاز وظروف طبيعية ملائمة على أمل ان يدفع ذلك صلاح الدين للزحف عبر المنطقة الصحراوية الممتدة ما بين طبرية وصفورية ، حيث يكون الاجهاد قد نال من جيشه فيسهل عند ذلك تمزيقه والقضاء عليه ، إلا ان اقتراح ريموند هذا لم يلق التأييد لدى المجتمعين وبضمنهم الملك جاي ، واتهموه بالجبن ، فأصدر أمره بالزحف نحو طبرية ، وسط ظروف بالغة القساوة تضافرت على تحقيقها الارتفاع الكبير بدرجات الحرارة في مثل هذا الشهر من السنة الذي تميز بطول ساعات النهار والشمس المحرقة التي تلهب رمال الصحراء فتزيد

الجو ناراً ، فضلاً عما كان الغزاة يعانونه من وطأة أسلحتهم الحديدية التي كانوا يحملونها ، واستناداً الى المصادر التاريخية فان جيش الغزاة كان يفوق جيش صلاح الدين في العدد والعدة وان فرسانهم يحملون من الأمتعة ما يجعلهم بعيدين عن التأثير المباشر للسهم والرمح والخصم الوحيد الذي يتهددهم هو سقوطهم من خيولهم ، كما كان الفرسان يتمتعون بحصانة جيدة بوساطة سلاح ثقيل يقيه مع حصانه .

ووصل الغزاة الى طبرية بعد ان بلغ بهم الجهد ونال منهم التعب والارهاق فتسابقوا نحو الآبار القريبة ليرووا ظمأهم ، فكانت خيبتهم كبيرة فقد كان صلاح الدين قد ردم صهاريج المياه في هذه المنطقة ليحرم العدو الاستفادة من مياهها . وقرر الملك جاي لوزينان النزول تجاه منحدر قرون حطين بناء على نصيحة ريموند الثالث الذي أشار بالنزول في هذا الموضع لقربه من أحد الآبار التي تبين فيما بعد جفافه من الماء . وقد كان سرور صلاح الدين بالغاً بعد ان بلغه سير الغزاة نحو طبرية فقال : « جاءنا ما نريد ونحن اولو بأس شديد واذ صحت كسرتهم فطبرية وجهة الساحل ما دونه مانع ولا من فتحه وازع » .

ولكي لا يعطي صلاح الدين للعدو فرصة للانتقال الى موقع آخر يتحصنون فيه ، قرر المباشرة بقتالهم في صبيحة يوم الجمعة ٣ تموز/يوليو ١١٨٧ م ٢٣ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ وقد وصف ابن شداد القتال في ذلك اليوم فقال « فركب العسكران وتصادما ، وعملت الجاليشية وتحركت الأطلاب .

والتحم القتال ، واشتد الأمر وذلك بأرض قرية تسمى

اللوبية وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، وقد دعوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم أنهم في غد زوار للقبور » .

وقد استمر القتال بين طيلة نهار الجمعة المذكورة ثم مال الليل بينها ، فذكر ابن الأثير ان صلاح الدين استغل حلول الظلام وحرك قواته باتجاه العدو وأحاط بهم (احاطة الدائرة بقطرها) . أما مؤلفو الغرب فقد وصفوا الحصار الذي فرضه صلاح الدين على قوات الغزاة بأنه من الدقة بحيث لم يكن (بوسع قط أن يفلت من الشبكة المنصوبة) .

الانتصار الكبير :

مع بداية فجر يوم السبت ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ - ٤ تموز/يوليو ١١٨٧ م قاد صلاح الدين هجومه الكبير ضد الغزاة ، وكان قد عين لكل أمير مكانه في الميمنة ، أو الميسرة بحيث لا يجوز له ان يبارحه ، فلا تتعين فرقة ، ولا يترك رجل واحد مكانه ، واختار من كل كتيبة حراس المقدمة من رماة السهام ، ثم قال : (عندما ندخل أرض العدو هذه هي أوامر قواتنا وتلك هي مواقع كتائبنا) .

وبدأ القتال وتولى ريموند الثالث قيادة جيش الغزاة باتجاه الدرب الواقع عند قرون حطين ، إلا أن قوات صلاح الدين وقفت أمامهم كالطود الشامخ ومنعتهم من الوصول الى ماء البحيرة في الوقت نفسه الذي كانت السهام تنهال عليهم من كل

جانب فكثر القتل منهم وأقدم أمير اربل مظفر الدين كوكبوري على إشعال النار في هشيم الحشيش لتأجيجه تحت حوافر خيل الأعداء . وتمكن ريموند الثالث من الفرار من أرض المعركة ، وذكر المؤرخ ابن الأثير ان ريموند عندما أيقن بهلاك الصليبيين أراد الفرار بأية وسيلة ، فحمل بكل رجاله على القوات التي يقودها تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين ، فأفسح تقي الدين الطريق أمامه حتى اذا نفذ منها بفرسانه (التأم الصف) . فاتخذ ريموند طريقه الى طرابلس ولم يلبث باليان ايلين ورينالد امير صيدا ان شقا لهما بعد مدة قصيرة طريقاً الى خارج أرض المعركة . فكانا آخر من هرب ولم تعد أمام الغزاة أية فرصة للنجاة أمام الاستبسال الرائع والهجمات العنيفة التي قامت بها قوات صلاح الدين فتقهقرت فلولهم الى قمتي التل المعروف بقرون حطين ونصبوا خيمة الملك جاي لوزينان بأعلى القمة ، فأحاط المسلمون بالجبل وشرعوا بالزحف نحوهم وسقط أسقف عكا قتيلاً ووقع صليب الصلبوت من يديه ، فأخذه رجال صلاح الدين فكان ذلك (من أعظم المصايب عليهم) . وشددت قوات صلاح الدين الهجوم فهوت خيمة الملك . وكان قد بقي معه مائة وخمسون من الفرسان أخذوا أسرى وسيقوا الى خيمة القائد صلاح الدين في مقدمتهم الملك جاي لوزينان ، وارناط أمير الكرك وجيرار دي ريد فورت مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وهفري امير بتفين واملريك شقيق الملك جاي مع عدد كبير من صغار بارونات المملكة .

لقد كان الانتصار في حطين أعظم كارثة لحقت بقوى الاحتلال منذ أن احتلوا بلاد الشام وكان إيذاناً بالقضاء على أخطر

حركة استعمار دولي واسع النطاق عرفها العصر الوسيط فقد خسر الغزاة في هذه المعركة القوة الضاربة من فرسانهم بين قتيل وأسير ، ثم انسحق معظم جيش مملكة بيت المقدس وتتضح ضخامة خسائر العدو من خلال أقوال المؤرخين الذين تناولوا الحديث عنها ، فورد في كتاب الروضتين نقلاً عن العماد الأصفهاني (فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل) . كما ذكرت المصادر الغربية أن باليان الثاني دي ابلين حين سمح له صلاح الدين بالذهاب الى بيت المقدس لأخذ زوجته وأولاده ، وجد المدينة في حالة يرثى لها لعدم وجود فرسان يدافعون عنها (اذ لم يبق بها سوى النساء والرهبان) فضلاً عن انهيار الروح المعنوية بعد ان علم بأخبار كارثة وقوع ملكهم جاي لوزينان في قبضة صلاح الدين الأيوبي .

ولم تلبث مدن ومعاقل الغزاة أن تساقطت تحت ضربات قوات صلاح الدين الذي رأى أن يبدأ بتحرير المدن والقلاع الساحلية ليحرم الغزاة من قواعدهم البحرية التي تؤمن اتصالهم بالغرب الاوربي ، فضلاً عن تحرير هذه المدن وفي مقدمتها عكا سيحقق الاتصال البحري السريع بين مصر وبلاد الشام .

على ان أهم الانجازات التي تحققت بعد معركة حطين على الاطلاق هو تحرير القدس التي فتحت أبوابها في وجه القائد صلاح الدين بعد حصار شديد لم يكن في وسع المحتلين مقاومته فآثروا الاستسلام ، ودخلت جحافل العرب المسلمين المدينة المقدسة في السابع والعشرين من شهر رجب ٥٨٣ هـ وهي ذكرى ليلة المعراج التي أسرى بها الله تعالى فيها بنبيه عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى .

تحرير القدس :

لقد كان أعظم انجاز تحقق على يد البطل صلاح الدين بعد انتصاره الكبير في حطين هو تحرير القدس من الغزاة الفرنجة ، وهنا تجلت عبقرية صلاح الدين العسكرية ، فكان بحق قائداً ميدانياً ومخططاً ستراتيجياً من الطراز الأول ، فما ان انتهى من تحقيق النصر في حطين حتى شرع بتطبيق ستراتيجية فاجأ بها الغزاة الذين كانوا يتوقعون أن يستثمر صلاح الدين انتصاره الساحق في حطين بالاندفاع نحو مدينة القدس ، وعندها تباشر القوى الصليبية الموجودة في الحصون والقلاع المنتشرة على الساحل الشامي في الزحف نحو القدس لقطع الاتصال بين صلاح الدين وقواعد تموينه وامداداته في الشام ومصر .

لقد كانت خطة صلاح الدين تستهدف استئصال الغزاة من مدن وقلاع الساحل الشامي ادراكاً منه بالخطورة التي سوف تترتب على استمرار احتلالهم لهذه المواقع ، إذ أن ذلك سيتيح للعدو استقبال الامدادات التي شرعت دول أوربا بارسالها الى الشام بعد وصول أخبار الكارثة التي لحقت بالغزاة في معركة حطين .

وقد تمكن صلاح الدين من تحرير معظم المواقع التي كان يحتلها الغزاة في الشام ، فحرر عكا وجميع الموانىء الرئيسة الواقعة جنوبي طرابلس مثل : بيروت ويافا وعسقلان وصيدا ما عدا (صور) فضلاً عن الحصون الواقعة جنوبي طبرية ما عدا (الشوبك والكرك) ، واستعد بذلك لمنازلة الغزاة في القدس فأحاطت قواته بها في العشرين من أيلول سنة ١١٨٧ م الخامس

عشر من رجب ٥٨٣ هـ ، وكان لجند العراق ممثلون بـالموصـل وما جاورها شرف المشاركة في تحرير القدس ، ومما تجدر الاشارة اليه ان عز الدين مسعود ـ أمير الموصل ـ كان قد تعهد بالمشاركة بعساكره وأمواله في حركة التحرير التي يتزعمها صلاح الدين ضد المحتلين الفرنج ، فشاركت قواته في الهجوم على طبرية في ربيع الثاني من سنة ٥٨٣ هـ وكان لهذه القـوات دور رائع في معـركة حطين .

أمضى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول سور القدس مستهدفاً تحديد الجهة التي سيشرع منهـا بمهاجمـة العدو ، فـوقع اختياره على الجهة الشمالية فانتقـل اليها في العشـرين من شهر رجب ، وبـادر بتعبئة قـواتـه ونصب آلات الحصـار ، وبـدأت المناوشات بين قوات صلاح الدين والغزاة عبر سور المدينة انتهت بوصول هذه القوات الى السور ونجاحها في احداث ثغرة فيه ، مما أشاع بين صفوف الغزاة على كثـرتهم قلقاً وفـزعاً شـديـدين ، فاضطروا الى طلب الأمان بعد أن أدركوا حماقة الامعان في إزهاق الأرواح على حد تعبير (باليـان ابلين) الذي كـان يتولى مهمـة الـدفاع عن القـدس . غير أن صـلاح الدين رفض الاستجـابة لطلبهم أول الأمر وقال : « لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه . . . وجزاء السيئة بمثلها » ثم عـاد ووافق على منحهم الأمان من منطلق انساني وسمح لمن أراد الـرحيل منهم بحمـل أموالهم وأمتعتهم . .

وهكذا دخل صلاح الدين الأيوبي القدس محرراً يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ محققاً بذلك نبوءة قاضي

دمشق محيي الدين بن الزكي الذي مدح صلاح الدين بقصيدة قال فيها :

وفتحُكم حَلباً بالسيف في صفرٍ
مبشّراً بفتوح القدسِ في رجب

وحين وصلت الى مصر أخبار الانتصار العظيم الذى حققه صلاح الدين على الفرنج في القدس ، اندهش نقيب الاشراف محمد بن أسعد بن علي من هذه الأخبار لما كان يعلمه من قوة الفرنج ومتانة التحصينات التي أقاموها هناك وزجوا خلفها آلاف المقاتلين فقال من قصيدة يمتدح فيها الناصر صلاح الدين :

أتُرى مناماً ما بعيني أُبصرُ ؟
القدس يفتح والفرنجة تكْسَرُ
ومليكهم في القيد مصفودٌ ولم
يُرَ قبل ذاك لهم مليكٌ يؤسرُ
فتحَ الشآمَ ، وطهّر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشرُ
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها
فاروقها عمرُ الإمام الأطهرُ
ولأنت عثمان المشرّف بعده
ولأنت في نصر النبوّة حيدرُ
ملكٌ غدا الاسلام من عجب به
يختال والدنيا به تتبخترُ

رد الفعل الاوربي على تحرير القدس :

لقد ترك نجاح العرب في تحرير القدس رد فعل عنيف في أوربا الغربية التي شرعت باعداد حملة جديدة استجابة الى نداءات الاستغاثة التي وجهها الغزاة في الشام ، وقد أشار المؤرخ ابن واصل في مؤلفه الموسوم : « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » أن الرهبان والقساوسة لبسوا الحداد عقب استعادة العرب لبيت المقدس ، وقام بطرك القدس باصطحاب جماعة منهم الى اوربا فطاف بهم البلاد مستنجداً بأهلها حاثاً لهم على التوجه الى الشام ، أما المؤرخ المقريزي في مؤلفه « السلوك لمعرفة دول الملوك » فقد ذكر أن الغزاة في الشام راسلوا الفرنج في صقلية ودعوهم لنصرتهم ، كما أكد مؤرخو الغرب أن رئيس أساقفة (صور) شرح للبابا أوربان الثالث حالة الصليبيين في الشام بعد تحرير القدس فلم يحتمل البابا تلك الأخبار المؤلمة فمات من الحزن أواخر عام ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م ، مما دفع خلفه جريجوري الثامن الى حث ملوك أوربا على القيام بحملة صليبية جديدة ، غير أن جريجوري هذا لم يلبث أن مات هو الأخر في كانون الأول من السنة نفسها ، فأسرع خليفته البابا كليمنت الثالث الى حث الامبراطور فردريك بربورسا الأول على ضرورة التوجه نحو الشام .

ومع حلول صيف عام ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م أبحر كل من ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد وفيليب اوغسطس ملك فرنسا على رأس جيوشهما ، وقضيا فصل الشتاء في جزيرة صقلية ، وأشار المؤرخ الصليبي (والتر Wallter) الى أن ملكي انكلترا

وفرنسا فرضا ضريبة عشرية على كل من لم يشترك من رعاياهما في هذه الحملة للاستعانة بها في سد نفقات هذه الحرب .

العرب في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة :

وهكذا واجه العرب تحدياً خطيـراً تمثل بـالحملة الصليبية الثالثة التي انطوت على مخـاطر كبيـرة بسبب الامكانـات الماديـة والبشرية التي توفرت عليها ، فأسرع صلاح الدين الى اتخاذ عدد من التدابير العسكرية لمواجهة الموقف ، فأمر باخلاء بعض المراكز وتدمير البعض الآخـر مستهدفـاً حرمـان العدو من استخـدامها كمواقع لقـواته المتقـدمة ، فهـدم سور طبـرية ويـافا وأرسـوف وقيسارية ، فضـلاً عن أسوار مـدينتي صور وجبيـل وأمر بنقـل سكانها الى بيروت . والواقع أن وصول الحملة الصليبية الثالثة قد أسهم في تدعيم موقف الغزاة في الشام ورفع معنويـاتهم المنهارة فتحولوا من مواقع الدفاع الى مراكز الهجـوم وتطلعـوا لاستعادة مـا فقدوه من المـدن والقلاع ، بخـاصـة بعـد ان انضم (جي لـوزينـان)ملك بيت المقدس السابق وجموع الفرسان النورمان الى الغزاة المحاصرين في مدينة عكا .

وكـان سـاحـل صـور قـد شهـد في شهـر نيســان ١١٨٩ م/٥٨٥ هـ وصـول اثنتين وخمسـين سفينة بقيـادة رئيس أساقفة بيزا ، تتابع بعدها وصول أساطيل جنوه والبندقية فضلاً عن الأساطيل التي جاءت من أوربا وهي حاملة آلاف المتطوعين من الفلمنك والفرنسيين والألمان وغيرهم وأحاط الجميع بمدينـة

عكا .

وهكذا كانت خطورة الموقف في بلاد الشام قد دفعت القائد صلاح الدين الى مخاطبة الخليفة العباسي ودعوته للحضور بنفسه ليلهب حماس المقاتلين ويشد أزر المجاهدين ويرفع معنويات المحاصرين في عكا ، في الوقت نفسه الذي أرسل يستدعي العساكر من مصر ونواحي الشام والعراق .

ويبدو أن صلاح الدين شعر بأهمية الدور الذي تلعبه الأساطيل البحرية في هذه المرحلة من الصراع ضد الغزاة الصليبيين ، فتطلع نحو المغرب العربي أملاً في إسهام الموحدين في الوقوف بوجه أساطيل أوربا والحيلولة دون وصولها الى المشرق العربي[1] . والجدير بالذكر أن الموحدين كانوا يتوافرون آنذاك على اسطول بحري كبير يمكن ان يقوم بدور فاعل في التصدي للأساطيل الاوربية في البحر المتوسط ، وقد سبق للموحدين أن خاضوا عدداً من المعارك البحرية ضد البرتغاليين والأسبان وغيرهم .

وقد تضمنت رسالة صلاح الدين الى يعقوب المنصور ما يمكن أن يقدمه الاسطول الموحدي من مساعدة لتخفيف الضغط الصليبي على بلاد الشام مؤكداً أن التصدي للغزو

---

١ ـ قامت دولة الموحدين في المغرب الأقصى على أنقاض دولة المرابطين ويعتبر عبدالمؤمن بن علي المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية بفضل الانتصارات التي حققها ضد المرابطين والتي انتهت بسقوط دولتهم سنة ٥٤١ هـ .

الصليبي والدفاع عن القدس واجب مقدس تقع مسؤوليته على مشرق الوطن العربي ومغربه على حد سواء . غير ان رسالة صلاح الدين لم تسفر عن نتائج ايجابية يمكن ان تسهم في حركة التصدي للغزو الاوربي آنذاك وذلك بسبب انشغال الموحدين بقتال البرتغاليين ، حيث نجح المنصور في تحقيق الانتصار على الاسطول البرتغالي سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠ م ، ففي الوقت الذي وصلت فيه رسالة صلاح الدين الأيوبي كان المنصور منهمكاً في نقل المعدات وآلات الحصار استعداداً لمهاجمة الثغور الساحلية البرتغالية ، ولا شك في أن المنصور يرى انه كان يؤدي دوره في الجهاد ضد الصليبيين من خلال تصديه لزحف الممالك الأسبانية في الشمال والقوى البرتغالية التي كانت تتطلع لاستعادة الأندلس وتهدد الموحدين في عقر دارهم متعاونين في ذلك مع النورمانديين وأساطيل جزيرة صقلية .

حصار الغزاة لمدينة عكا :

جعل الغزاة من عكا هدفاً لحملتهم الثالثة ، فأحكموا حصارهم حولها من البحر والبر وشيدوا حولهم سوراً من التراب ليقيهم سهام العرب ويقطعوا الطريق في وجه أي معونة قد يقدمها صلاح الدين الى المحاصرين داخل المدينة ، في الوقت نفسه قامت فيه سفن الجنوية باغلاق الميناء لتحول دون قيام الاسطول المصري بتقديم المساعدة لأهل عكا ، في حين لم تنقطع الامدادات على الغزاة من الاسكندناويين والانكليز والنرمان والايطاليين

والألمانيين ، وتوافر لدى العدو من الأسلحة ما فاق أسلحة العرب المسلمين ، فكان لديهم الآلات (الحربية العجيبة ، والصنائع الغريبة) ، كالأبراج الكبيرة المصنوعة من الأخشاب الطوال والحديد ، والدبابات الهائلة المصنوعة من الخشب والرصاص والحديد والنحاس المقامة على عجل تسير من داخلها ، وكان لها رأس بقرنين يقال له الكبش ، وهي لا تنقر الأسوار فحسب وانما تلقي النار فيها . وقد تمكن المقاتلون العرب من تدميرها بالقاء النار داخلها عندما فتح بابها فقتلوا من فيها من الأعداء ، كما استخدم الغزاة : (الزنبرك) وهو آلة في طول الذراع ، ترمي السهام بسرعة فائقة وقوة هائلة بحيث يمكنها أن تخترق رجلين جالسين أحدهما خلف الآخر .

أما عن قوات صلاح الدين فقد بذلت جهداً متميزاً لوقف خطر هذه الأسلحة من خلال ابداع الآلات الحربية التي واجهوا بها أعداءهم ، ومن تلك الأسلحة آلة حديدية تسمى (مثلثة) بأحجام مختلفة تنشر على الأرض وتقوم مقام الألغام في الوقت الحاضر ، وهي تعيق تقدم العدو وبخاصة فرق الفرسان ، كما لعب النفط الأبيض القادم من العراق دوراً خطيراً في إرباك قوات الغزاة . وقد أشاد صلاح الدين بأهمية النفط الأبيض الذي حمله العراقيون الى أرض المعركة من خلال الرسالة التي بعث بها الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي . وكان عز الدين مسعود - أمير الموصل - قد أسرع بتعبئة قواته للمشاركة في الدفاع عن عكا ، وعهد بقيادتها الى ولده الأمير علاء الدين ، وزوده بكميات كبيرة من النفط الأبيض والرماح والتراس ، وكان سرور

صلاح الدين الأيوبي بوصول جند العراق بالغاً ، فأنزل علاء الدين بين ولديه الأفضل والظاهر ، ولقبه بالملك السعيد ، وقد استخدمت قوات صلاح الدين النفط أحسن استخدام من خلال وضعه بقارورات أو قدور والقائه بالقوس والسهام والمنجنيقات . كما استخدمت هذه القوات أيضاً نوعاً من الأقواس يشدها رجل واحد فترسل عدة سهام دفعة واحدة بقوة اندفاع شديدة .

وجرت معارك عنيفة حول عكا بذل المقاتلون العرب خلالها جهداً كبيراً لفتح ثغرة في نطاق هذا الحصار الشديد وإيصال الامدادات الى المدينة ، ونجح الاسطول المصري في دخول عكا محملاً بالمؤن وأعداد من الجند ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين لفك الحصار عن المدينة التي أحاطها الغزاة بحشود هائلة من رجالهم وقفوا كالسور المنيع ، وقد تمكن العدو من احداث ثغرة في سور عكا فكان ذلك مقدمة لسقوطها في أيديهم في الثاني عشر من شهر تموز ١١٩١ م ، جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ . وعلى أثر ذلك تم عقد الصلح بين صلاح الدين الأيوبي وريشارد قلب الأسد في السنة التالية ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م ، وقد نص على ان يحتفظ الغزاة بمنطقة الساحل ما بين عكا ويافا ، وان يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة القدس ، وان تكون عسقلان وما يليها جنوباً بيد صلاح الدين ، وانحسر نفوذ الغزاة في شريط من الأرض لا يزيد عرضه على عشرة أميال ، وبطول يبلغ التسعين ميلاً .

الفصل الرابع

خلفاء صلاح الدين والتحدي الصليبي :

أقام صلاح الدين بمدينة القدس مدة من الوقت أشرف خلالها على اصلاح ما دمرته الحرب ، وبنى المدارس والمستشفيات ، ثم اتجه نحو الشمال ليتفقد أحوال دولته ، ثم عاد الى دمشق فقضى بها عدة أشهر حتى بلغ الكتاب أجله فانتقل الى الرفيق الأعلى في السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٩ هـ/ ٤ آذار عام ١١٩٣ م ، وقد نقل العماد الأصفهاني وصفاً لما أصاب الناس يوم وفاة البطل الذي قادهم نحو النصر ، وكان لهم المثل الأعلى بتقواه وشجاعته ونبله ومروءته ، فقال : « وكان يوماً مشهوداً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولو قبل الفداء لفداه الناس بالنفس » .

والواقع ان صلاح الدين استطاع بتصديه للتحدي الصليبي أن يقضي على أمل الغزاة في التوسع داخل رقعة الوطن العربي ، وأظهر ان الوحدة في حياة العرب هي قرين القوة والنصر .

وقد تجددت برحيل صلاح الدين أطماع الغزاة الاوربيين

يحدوها الأمل في تحقيق المزيد من المكاسب على حساب الامة العربية ، فدعا البابا إنوست الثالث الى حملة صليبية جديدة لقيت تأييداً من جانب هنري السادس ملك المانيا ، بسبب انشغال انكلترا وفرنسا بالحرب التي اندلعت بينهما آنذاك ، وقد وصلت قوات هنري السادس هذه الى مدينة عكا أواخر عام ١١٩٧ م أوائل سنة ٥٩٤ هـ ، فلم تجد ترحيباً من ملك بيت المقدس (هنري دي شمباي) وقام النزاع بين الغزاة الجدد والقدامى مما ساعد العرب على الحاق الهزيمة بهم فاضطروا للرحيل الى المانيا بعد ان وصلتهم أخبار وفاة الملك هنري السادس .

تواصل حملات الغزو ضد الوطن العربي :

شهدت السنوات الاولى من القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري موجات غزو جديدة وجهتها أوربا ضد الوطن العربي ، فقد دعا البابا انوسنت الثالث الى حملة صليبية رابعة كرد فعل على فشل الحملة السابقة ووجه دعوته الى فرنسا وانكلترا والمانيا . وقد استجاب عدد كبير من سكان هذه البلاد وتجمعوا في ايطاليا استعداداً للرحيل نحو الشرق ، وبدأوا زحفهم في عام ١٢٠٣ ، وكانت وجهتهم مصر ، غير ان هذه الحملة لم تلبث أن تحولت عن هدفها ، واتجهت نحو القسطنطينية ، فاجتاحتها جيوشهم في العام التالي وتم تنصيب بودين التاسع امبراطوراً باسم (بودين الأول) وقامت بذلك امبراطورية لاتينية خاضعة لنفوذ البندقية استمرت قائمة نحواً من ستين سنة ، وقد

اجتذبت هذه الدولة الجديدة كثيراً من العناصر الصليبية الغازية التي كانت تتوجه من قبل الى الوطن العربي ، فضلاً عن رحيل الكثير من صليبيي الشام الى القسطنطينية .

تطلع الغزاة الى احتلال مصر :

تنفيذاً لوصية الملك رتشارد قلب الأسد وقرار (مجمع اللاتران) الذي عقده البابا انوسنت الثالث والذي أجمع على ضرورة احتلال مصر ، وقد بدأ زحف الغزاة نحوها منذ سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م في عهد الملك العادل ابن أيوب ـ أخي صلاح الدين ـ الذي كان ينيب عنه ولده الكامل في حكم مصر آنذاك ، وقد شرع الكامل في اتخاذ سلسلة من التدابير لمواجهة الموقف وقام بحشد رجال القبائل العربية باقليم وسط الدلتا ، كما حرص على اثارة حماس حامية دمياط ، ثم قام بهجوم مضاد ضد الغزاة تقهقروا على اثره عن مواقعهم ، مما اضطرهم الى بناء برج ضخم من الخشب نصبوه على سفينتين يصل بينهما جسور وحاملات ، وقد هيأ لهم هذا البرج الاستيلاء على برج السلسلة المقام على النيل والذي كان بمثابة خط دفاعي يحول دون تقدم أساطيل العدو نحو المدينة ، وقد ذكر المؤرخون أن الملك العادل حين بلغه نبأ استيلاء الغزاة على البرج المذكور دق بيده على صدره أسفاً وحزناً ، ومرض من ساعته ثم لم يلبث أن مات بعد أيام . وتحتم على الملك الكامل أن ينهض بعبء الدفاع عن دمياط التي

امتد حصار الغزاة لها الى ستة عشر شهراً وعشرين يوماً ، عدمت الأقوات خلالها وامتلأت الطرق بالموتى ، ولم تلبث أن سقطت بأيدي العدو يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر شعبان سنة ٦١٦ هـ/تشرين الثاني ١٢١٩ م ، وقد ارتكب الغزاة مجزرة رهيبة بحق سكانها ، وأسرع الكامل الى طلب المساعدة من اخوته ملوك الاسرة الأيوبية في بلاد الشام ، فوصل أخوه الملك المعظم عيسى على رأس جيش كبير ، كما وصلت قوات من حماة بقيادة المظفر الثاني - ابن اخت الملك الكامل - واخرى بقيادة أخيه الملك الأشرف موسى بن العادل ، فقويت بوصولهم قلوب المقاتلين وارتفعت روحهم المعنوية .

الانتصار على الغزاة :

كان الغزاة قد قرروا الزحف جنوباً بعد ان وصلتهم امدادات كبيرة من الامارات الصليبية في الشام . وكان على الكامل ان يسرع في حسم الموقف تحسباً لأي امدادات اخرى قد تصل الى العدو فجرت بين الطرفين معارك طاحنة استبسل خلالها العرب وأبلوا البلاء الحسن في الدفاع عن أرضهم وعدم تمكين العدو من تحقيق أهدافه في هذه الحملة وهي احتلال مصر ودق اسفين بين مشرق الوطن العربي ومغربه ، وقد انتهت المعارك بهزيمة الغزاة وارغامهم على الرحيل عن دمياط دون قيد أو شرط ، وقد تبارى الشعراء في تمجيد هذا الانتصار الذي حققه العرب ضد الغزاة المحتلين ، ومما قيل في هذه المناسبة قصيدة الشاعر شرف الدين بن عينين التي يقول فيها :

سلوا صهـوات الخيـل يـوم الـوغى عنـا
اذا جـهـلت آيـاتـنـا والـقـنـا اللدنـا
غـداة التقينـا دون دميـاط جـحفـلاً
مـن الـروم لا يحصى يقينـاً ولا ظنـا
وأطـمـعـهـم فـينـا غـرور فـأرقـلوا
الـينـا سـراعـاً بـالجـهـاد وأرقلنـا
فـلما بـرحت سمـر الـرمـاح تنـوشهـم
بـأطـرافهـا ، حتى استجـاروا بنـا منـا
بـدا المـوت مـن زرق الأسـنـة أحمـراً
فـألقـوا بـأيـديهم الينـا ، فـأحسنـا
ومـا بـرح الاحـسـان منـا سـجيـة
نـورثـهـا مـن صيـد آبـائنـا الابـنـا
وقـد عـرفـت أسيـافـنـا ورقـابهـم
مـواقعهـا منـا ، فـان عـاودوا عـدنـا
مـنحـنـاهـم مـنـا حيـاة جـديـدة
فـعـاشـوا بـأعـنـاق مـقـلدة مـنـا
ولـو مـلكـونـا لاستبـاحـوا دمـاءنـا
ولـوغـاً ، ولكنـا ملكنـا فـأسجحنـا

حملة الامبراطور فردريك الثاني :

لم يلبث الملك الكامل أن واجه حملة غزو اوربي جديدة قادها الامبراطور فـردريك الثـاني سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م ، وتـذهب

المصادر العربية الى القول بأن الخلافات بين ملوك الاسرة الأيوبية كانت وراء قدوم هذه الحملة وأشارت الى أن علاقة الملك الكامل قد ساءت مع أخيه الملك المعظم عيسى الى الحد الذي دفع الأخير الى الاتصال بخوارزم شاه ملك الخوارزميين ليستعين به ضد أخيه الكامل الذي سعى بدوره الى توثيق علاقاته مع فردريك الثاني ودعاه للحضور الى الشام ليسلمه بيت المقدس ، ويرى الباحثون في تاريخ الحروب الصليبية ان الملك الكامل كان قد توصل الى معلومات تفيد بأن الامبراطور المذكور يعد العدة للخروج بحملة صليبية نحو بلاد الشام ، فتحرج موقفه لا سيما بعد ان علم بأن أخاه المعظم عيسى قد تحالف مع الخوارزميين ، فلم يعد في وسعه مواجهة هذه الحملة بعد ان انفصل عنه أخوه المعظم عيسى وأصبح في الخندق المعادي ، فقرر تفادي الصدام مع الامبراطور والعمل على كسب صداقته ليتمكن من الوقوف في وجه التحالف القائم بين أخيه والخوارزميين .

والواقع ان خطوة الملك الكامل هذه قد ترتبت عليها نتائج وخيمة لا يمكن ان تبررها الدوافع التي تذرع بها الملك الكامل ، إذ ان تسليم القدس بدون قتال الى الامبراطور جريمة لا تغتفر بحق الوطن والتاريخ وقوافل الشهداء الذين اريقت دماؤهم في سبيل تحرير هذه المدينة من أيدي الغزاة . وقد أحدث اعلان الملك الكامل تسليمه القدس للامبراطور فردريك الثاني ردود فعل عنيفة في الأوساط العربية الاسلامية ، وانبرى خطباء الامة وفقهائها يقبحون هذه الخطوة ويدعون الى استعادة المدينة المقدسة .

وكان الاتفاق بين الكامل والامبراطور قد نص على تسليم

بيت المقدس عدا الحرم الشريف وقبة الصخرة والمسجد الأقصى شرط ألا يقيم الغزاة فيها حصوناً أو أية قلاع حربية ، كما تنازل الكامل عن بيت لحم والناصرة وطريق الحج من بيت المقدس الى يافا على الساحل ، وتعهد باطلاق من لديه من أسرى الفرنج ، على ان يتعهد فردريك من جانبه بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه ، حتى ولو كانوا من صليبيي الشام ، وان يضمن عدم وصول امدادات جديدة الى انطاكية وطرابلس اللتين لا تزالان بأيدي الغزاة .

وقد استمرت المعاهدة سارية المفعول حتى وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م بعد تسع سنوات من تاريخ توقيعها ، وخلفه ولده العادل الثاني الذي لم يلبث أن تم خلعه عن الحكم على يد أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٧ هـ ، ولم تمض على حكمه سوى أربع سنوات حتى تمكن من استعادة بيت المقدس واعادتها الى حظيرة الدولة العربية الاسلامية .

خاتمة الحملات وفشل التحدي الصليبي

(١) معركة المنصورة وهزيمة لويس التاسع :

كان نجاح الملك الصالح نجم الدين أيوب في استعادة بيت المقدس قد أحدث تأثيراً سيئاً في نفوس الاوربيين الذين كانوا يتطلعون الى تحقيق أهدافهم الاستعمارية في الوطن العربي ، فبدأت الدعوة للقيام بحملة صليبية جديدة ، وكان في مقدمة المتحمسين لهذه الدعوة لويس التاسع ملك فرنسا الذي بادر الى اعداد حملة كبيرة لغزو مصر أبحرت في عام ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م ضمت اسطولاً ضخماً يزيد على ١٨٠٠ سفينة تحمل ما يزيد على الثمانين ألف مقاتل بكامل عدتهم ، وهذه الحملة هي الحملة السابعة التي توجهها أوربا ضد المشرق العربي ، باستثناء الحملة الرابعة التي كانت موجهة في الأصل لاحتلال مصر غير انها تحولت عن هدفها الأصلي واتجهت نحو القسطنطينية . اتجهت حملة لويس التاسع نحو مصر مارة بجزيرة قبرص حيث أمضت فيها بضعة أشهر ، تسربت خلالها الاخبار الى الملك الصالح الذي كان آنذاك مقيماً بدمشق ، فأسرع الى مصر في المحرم من عام ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م ونزل في اشموم طناح ليشرف بنفسه على الاستعدادات اللازمة لمواجهة هذه الحملة ومتابعة أعمال التحصينات التي باشرها المصريون في دمياط .

وفي أواخر شهر أيار ١٢٤٩ م أقلع اسطول الغزاة باتجاه

دمياط ووصل الى الفرع الشرقي للنيل ورست بعض سفنه بالبر الغربي تجاه بحير دمياط في حين اتجهت باقي قطع الاسطول نحو الشمال الشرقي بفعل الرياح العاصفة التي حالت دون رسوها في المنطقة المحددة لها ، ولم ينتظر لويس التاسع عودة هذه السفن وأصدر أوامره بالنزول الى البر والمباشرة بمهاجمة مدينة دمياط .

وكانت قوات الملك الصالح قد استعدت لخوض المعركة بعدد وافر وعدة كاملة أدخلت الرعب والفزع في قلوب الغزاة ، وقد نقل (جوانفيل) مؤرخ الحملة وأحد قوادها صورة صادقة للموقف الذي واجهه الغزاة بعد وصولهم الى دمياط فقال : (. . . وصل الملك أمام دمياط ، ووجدنا هناك كل جيوش السلطان تقف على الشاطىء كتائب تسر الناظرين ، ذلك ان أسلحة السلطان صنعت من ذهب فكانت الشمس تشرق على هذه الأسلحة فتزيدها بريقاً ولمعاناً ، وكانت الجلبة التي يأتون بصنوجهم وأبواقهم الشرقية تدخل الرعب في قلوب السامعين) . ولم يكنْ في وسع الغزاة المخاطرة باقتحام دمياط بعد الذي شاهدوه من استعدادات وتأهب لخوض المعركة . غير ان الظروف لم تلبث أن أتاحت لهم تحقيق أهدافهم في احتلال المدينة . ويستفاد من الروايات التاريخية ان اسباب سقوط دمياط تعود الى انسحاب فخر الدين يوسف قائد الجيش الى اشموم طناح حيث يعسكر الملك الصالح الذي كان يعاني آنذاك من شدة المرض . ويبرر المؤرخون انسحاب فخر الدين الى أنه أرسل الحمام الزاجل للوقوف على رأي الملك الصالح بعد نزول الغزاة على دمياط فلم يتلق أية اجابة على الرغم من تكرار المحاولة ، فظن ان الملك قد

مات فتحركت أطماعه وقرر الرحيل الى اشموم طناح تاركاً المدينة خالية من المدافعين فأسقط في أيدي سكانها الذين غادروها الى حيث يعسكر الملك الصالح .

وهكذا أتاح انسحاب فخر الدين من دمياط الفرصة أمام العدو لاحتلال المدينة لاسيما انه لم يعمد الى تدمير الجسر الذي كان يربط بين الشاطىء الشرقي والغربي ، فدخلت جيوش الفرنسيين دمياط دون أن تواجه مقاومة تذكر ، وكان لهذا الحدث أثره العميق في نفس الملك الصالح وتملكه الغيظ ، ونهض من فراشه على الرغم مما كان يعانيه من شدة المرض ، ولم يقبل أي مبرر لانسحاب حامية دمياط وعدَّ هذا التصرف خيانة بحق الوطن وأمر باعدام خمسين رجلاً من أفراد الحامية ، وكاد يأمر بقتل فخر الدين يوسف قائد الجيش لولا حراجة الموقف آنذاك ، ثم أصدر الملك الصالح أوامره بالانسحاب عن اشموم طناح الى المنصورة ذات الموقع الحصين ، وباشر الجند بأعمال التحصينات واعداد المدينة لمواجهة الغزاة ، وقدمت على المنصورة جموع المجاهدين من عرب مصر جنوبها وشمالها ، وشرعوا بشن الغارات على معسكر الغزاة وأوقعوا فيهم الخسائر الكبيرة وأسروا العديد من رجالهم .

وفاة الملك الصالح نجم الدين ايوب :

وفي ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ ٢٢ تشرين الثاني ١٢٤٩ م توفي الملك الصالح بالمنصورة عن أربع

وأربعين سنة بعد حكم استمر تسع سنوات وثمانية أشهر وعشرين يوماً ، وكان قد عهد لولده الملك المعظم توران شاه الذي كان يقيم في حصن كيفا ، فحرصت زوجته شجر الدر على كتمان خبر وفاته لئلا يصل الى العدو من جهة كما شددت على عدم نشر الخبر بين الجند حتى لا يؤثر ذلك في الروح المعنوية ، وأمرت بحمل جثته سراً الى قلعة الروضة ، وجعلت الأطباء يدخلون كالعادة الى غرفة الملك الصالح كل يوم ، كما كانت الأوراق الرسمية تدخل الى الغرفة نفسها وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه ، وأسرعت شجر الدر الى توجيه ارسل الى الملك المعظم لاستدعائه الى مصر .

غير ان خبر وفاة الملك الصالح ما لبث أن تسرب بعد مدة قصيرة الى الفرنسيين فبدأوا بالزحف جنوباً حتى وصلوا الى المنصورة ، وعسكروا شمال بحر اشموم طناح ، الذي كان يفصل بينهم وبين عساكر المسلمين .

ثم رأى الملك لويس التاسع ان المصلحة تقضي بحسم الموقف ومهاجمة جيوش الملك الصالح المرابطة في المنصورة ، وتنفيذاً لهذه الستراتيجية الجديدة كان لا بد من بناء جسر للعبور الى الجانب الآخر ، فشرع الفرنسيون باقامة الجسر المذكور ، غير انهم لم يكادوا يبدأون ببناء بضعة أمتار حتى واجهوا سيلاً وابلاً من السهام والقذائف الملتهبة ردتهم على أعقابهم ، مما اضطر الملك الفرنسي الى اصدار أوامره ببناء برجين زودهما بالقذائف لحماية العاملين في الجسر ، غير ان الحامية العربية المكلفة بحماية الشاطىء وتدمير الجسر لجأت الى بعثرة الجهد المبذول من قبل

العدو فكان كلما أتموا من جسرهم متراً هدم العرب أمتاراً أمامه من الجانب المقابل مما يؤدي الى اتساع مجرى النهر ، وقد أشار جوانفيل مؤرخ الحملة الى ذلك فقال : « فكانوا يفسدون علينا في يوم واحد ما كنا ننجزه في أسابيع ثلاثة » في الوقت نفسه كان العرب يمطرون فيه العدو بسيل لا ينقطع من قذائف النار اليونانية التي أنزلت الرعب بين صفوفهم ونالت من روحهم المعنوية كل منال ، وقد أمدنا جوانفيل بصورة حية عن مدى الذعر الذي انتاب الجيش الفرنسي بسبب تلك القذائف فنقل عن (ولتر دي كوديل) أحد قادة الحملة قوله : « أيها السادة نحن في خطر داهم لأن العدو لو صوّب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن في أماكننا لأتانا الموت من كل مكان ، ولو أننا غادرنا مراكزنا التي استولينا عليها للحقنا العار ، فلا منقذ لنا من هذا الخطر الداهم إلا الله . . . فنصيحتي اليكم أن نخر سجداً كلما صوّبوا هذه النار نحونا لنبتهل الى الله سبحانه وتعالى أن ينجينا من هذا الخطر » . غير ان الفرنسيين ما لبثوا ان وفقوا للاهتداء على مخاضة في بحر اشموم تتيح لفرسانهم عبورها بسهولة . . وعكف لويس التاسع بوضع خطة تقضي بعبور أخيه الكونت أرتوا على رأس فرقة الفرسان ومهاجمة العرب المعسكرين على الشاطىء المقابل ليتيح الفرصة أمام الفرنسيين لاتمام نصب الجسر لتعبر باقي قواتهم بقيادة الملك نفسه .

وفي اليوم الرابع من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ/شباط ١٢٥٠ م عبرت فرقة الفرسان وانقضت على معسكر العرب الذين لم يتوقعوا الهجوم من تلك الناحية ، واندفع الكونت أرتوا نحو المنصورة متجاهلاً أوامر أخيه التي تقضي باقتصار الهجوم على

المنطقة المقابلة للجسر ، وهكذا أوقع أرتوا فرسانه بالمصيدة وألقاهم في التهلكة ، فقد استبسلت حامية المدينة وجند الملك الصالح في القتال رغم هول المفاجأة وأبلت فرقة المماليك البحرية البلاء الحسن فشتت شملهم وطاردت فلولهم التي لاذت في الأزقة والشوارع ، وخرج أهل المنصورة لقتال الغزاة وأقاموا المتاريس في الطرقات ، وقذفوا الحجارة من نوافذ منازلهم ، فكانت هذه المعركة بحق معركة الجيش والشعب . وخسر الفرنسيون أكثر من ألف وأربعمائة فارس وعدد من نبلائهم ، ولولا وصول الملك وتفانيه في القتال لهلك جيش الغزاة برمته . وقد نقل جوانفيل صورة ما جرى على الفرنسيين في المنصورة فقال : « . . . ان العراك فيها لم يكن بقوس ولا برمح ولا بقذيفة مدفع ، انما كانت صورة مروعة لملحمة هائلة اشتبكت فيها الأجساد البشرية وهي تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف والرماح مختلطة بعضها ببعض ، فليس هناك إلا ضربات ذات اليمين وذات الشمال ، وهنا وهناك وعلى الرؤوس وفي الصدور وخلف الظهور . صيحات تزأر وأنات تزفر وكأس المنايا على شفاه الصرعى تدور ، وبين ذاك طارت ضربة طائشة فصادفت الكونت أرتوا فخر صريعاً لتوه » ، وعدد جوانفيل أسماء القادة الفرنسيين الذين ابيدت فرقهم .

هزيمة لويس التاسع ووقوعه في الأسر :

عاد الملك لويس التاسع مع بقية جيشه بعد الكارثة التي نزلت بفرق فرسانه ، وكان يعتمد على دمياط في عملية امداده

بالمؤن والأقوات . وفي هذه الأثناء وصل الملك المعظم الى مصر واستقر في قصر السلطنة بالمنصورة في التاسع عشر من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ شباط ١٢٥٠ م ، فلجأ الى الخطة نفسها التي اعتمدها المصريون في عهد جده الملك الكامل ، فأمر بأن تصنع عدد من السفن بالمنصورة ثم تحمل مجزّأة الى بحر المحلة حيث اعيد تركيبها وشحنت بالمقاتلين وأبحرت شمالاً وقطعت الطريق بوجه سفن العدو التي جاءت تحمل الميرة من دمياط ، وعددها اثنتان وخمسون سفينة فغنمها المصريون وأسروا وقتلوا نحواً من ألف رجل من الغزاة ، وبهذه العملية الناجحة انقطع عن العدو ما كان يصله من الامدادات والمؤن من دمياط ، ووقع الغلاء عندهم (وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب) .

وهكذا تدهور موقف الغزاة واشتدت الضائقة بهم ، واضطر لويس التاسع الى مراسلة الملك المعظم يعرض عليه التنازل عن دمياط مقابل أن يتنازل المسلمون عن بيت المقدس ، إلا ان الأخير رفض هذا العرض بشدة ، ولم يجد لويس التاسع أمامه سوى الاستمرار في المقاومة وقرر الرحيل الى دمياط ليلة الأربعاء الثالث من شهر محرم ٦٤٨ هـ/نيسان ١٢٥٠ م ، ولم يكد يصل الى (فارسكور) حتى اصطدم بالجيوش المصرية التي انقضت على قواته وقضت على معظمها ، وقدر المؤرخون عدد قتلى الغزاة بعشرة آلاف والأسرى بمئة ألف ، واضطر الملك لويس التاسع الى طلب الأمان فأجيب مع عدد من قادة عسكره ، وحمل الى المنصورة حتى سجن بدار ابن لقمان التي لا تزال بقاياها قائمة

حتى اليوم ، ووكل بحراسته الطوشي صبيح . ثم اتفق على اطلاق سراح الملك الفرنسي وجميع الأسرى على أن ينسحبوا من دمياط وان يدفعوا فدية كبيرة على أن يدفع نصفها قبل ان يطلق سراحه والنصف الآخر بعد وصولهم الى عكا . وتمكنت الملكة زوجة لويس وكانت مقيمة بدمياط من جمع نصف الفدية ، وتم اطلاق سراح الملك ، ودخل المصريون دمياط يوم الجمعة الثالث من شهر صفر ٦٤٨ هـ ، بعد أن ظلت في أيدي الغزاة أحد عشر شهراً وتسعة أيام .

تحرير الشام وسقوط اخر معاقل الغزاة

لم يبق للغزاة الصليبيين فوق أرض الشام سوى امارة انطاكية وامارة طرابلس وبعض الحصون المتفرقة على الساحل الشامي . وقد تيسر للعرب المسلمين تحرير هذه المواقع تباعاً ، وكان أول موقع تم تحريره هو مدينة صفد سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٥ م على يد سلطان مصر الظاهر بيبرس ، ثم أتبع ذلك بتحرير انطاكية سنة ٦٦٦ هـ . أما امارة طرابلس فقد كان شرف تحريرها من أيدي الغزاة قد تم على يد الملك المنصور قلاوون الألفي وولده الأشرف خليل وهما من سلاطين المماليك البحرية .

وكان قلاوون قد بدأ نضاله ضد الفرنج بالهجوم على حصن المرقب سنة ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م الذي كان من أهم معاقل الاسبتارية فحاصره ثمانية وثمانين يوماً واضطرت الحامية الى الجلاء الى عكا وقد أدى هجوم قلاوون المفاجىء هذا الى نشر الذعر بين صفوف الغزاة فسارع أمير طرابلس الى عقد الصلح مع قلاوون ، غير انه لم تمض سنوات حتى نقض الغزاة الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين ، فخرج قلاوون على رأس جيش كبير زحف به صوب طرابلس وحاصرها تسعة وثلاثين يوماً وتم دحر الغزاة بعد قتال عنيف ودخلت جيوش المسلمين طرابلس في نيسان من سنة ١٢٨٩ م /٦٨٨ هـ ، وبدأ قلاوون يستعد للزحف نحو عكا لتحريرها من الفرنج غير ان الوفاة أدركته في ذي القعدة من سنة ٦٨٩ هـ . فأخذ ولده الأشرف خليل على عاتقه تحقيق ما بدأ به أبوه ، فشرع في الاستعداد للمعركة وتوافدت عليه جيوش العرب

من مصر وجميع أنحاء الشام ، وقد شارك الأهالي في الحشد الهائل الـذي اجتمـع عـلى أبـواب عكـا في شهـر ربيـع من سنـة ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م فشددوا الحصار حـولها مـدة ثلاثـة وأربعين يوماً ، عجز خلالها الغزاة عن المقـاومة فـأعلنوا استسـلامهم ، وهكذا تم تحرير عكا بعد مائة عام من سقوطها بأيدي الصليبيين .
وتبع ذلك تحرير باقي مدن الشام التي كانت لا تزال ترزح تحت وطأة الاحتلال ، وطرد آخر جندي من جنود الغزاة بعد نضـال طويل وكفاح مرير أثبت العرب خلاله أنهم امـة لا تقبل الضيم ولا ترضى الهوان معبرة بذلك عن أصالتها وقدرتها على الحياة من خلال مواجهتها للتحدي الاوربي الخطير الذي استهدف احتلال أرضها وتمزيق وحدتها وعرقلة مسيرتها الحضارية ، واستطاعت أن تخرج منتصرة عـلى الرغم من ضخـامة جيـوش العدو وتـواصل امداداته وتعدد الدول التي أسهمت في ادارة الصـراع وسخرت جميع امكانـاتها المـادية والبشـرية لانجـاح عملية الغـزو وتحقيق أهدافها في احتلال الوطن العربي .

ان انتصار امتنا العربية في التصدي لهذا الغزو جاء نتيجة ايمانها برسالتها ومبادئها ورفضها لأي شكل من أشكـال التسلط الأجنبي مهما كان مصدره ، فقدمت قـوافل الشهـداء من أجل الدفاع عن أرضها وصون كرامتها وحريتها واستقلالها .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية للفصلين الثالث والرابع

أ - المصادر العربية القديمة :

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، القاهرة ١٩٦٣ .

الأصفهاني (عماد الدين الكاتب) : الفتح القسي في الفتح القدسي ، مصر ١٩٢٤ .

ابن شداد (بهاء الدين) : سيرة صلاح الدين ، مصر ١٩٣٤ .

ابن العديم (كمال الدين عمر) : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، دمشق ، ١٩٥٤ .

ابن القلانسي (حمزة بن اسد) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ .

ابن واصل (جمال الدين بن سالم) : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، ثلاثة اجزاء ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ .

ابو شامة (عبدالرحمن) : الروضتين في اخبار الدولتين .

ب ـ المصادر العربية والمترجمة الحديثة :

الجميلي (د. رشيد عبدالله) :
ــ دولة الأتابكة في الموصل ، بيروت ١٩٧٠ .
ــ امارة الموصل في العصر السلجوقي ، بغداد ، ١٩٨٠ .
ــ دور العراق في التصدي للتحديات التي واجهت الامة العربية في العصر الوسيط ـ مجلة آداب المستنصرية ، ١٩٨٦ .
ــ وحدة القوى المقاتلة في عصر صلاح الدين ، مجلة المؤرخ العربي ، ١٩٨٩ .
ــ صلاح الدين و ٨٠٠ عام على حطين ، مجلة الباحث العربي ، لندن ، ١٩٨٧ .

حبشي (د. حسن) : نور الدين والصليبيون ، مصر ١٩٤٨ .

حتي (فيليب) : تاريخ العرب (مطول) ، بيروت ١٩٥٣ .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، ثلاثة أجزاء .

زكي (عبدالرحمن) : معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

سالم (د. عبدالعزيز) : طرابلس الشام في العصر الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٧ .

الشيال (د. جمال الدين) : تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ،

مصر ١٩٦٧ .
عاشور (سعيد عبدالفتاح) : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ج ٢ ، مصر ١٩٦٣ .
يوسف (د. جوزيف نسيم) : العدوان الصليبي والرأي العام الغربي ، مصر ١٩٦٨ .

ج - المراجع الأجنبية :

Anna Commnena, The Alxiad. English Trans, LOndon 1969.

Cahen (Claud): La Syrie du Nord, al'epoque des Croisades, Paris, 1940.

Cander, The Latine Kingdom of Jerusalem, London, 1967.

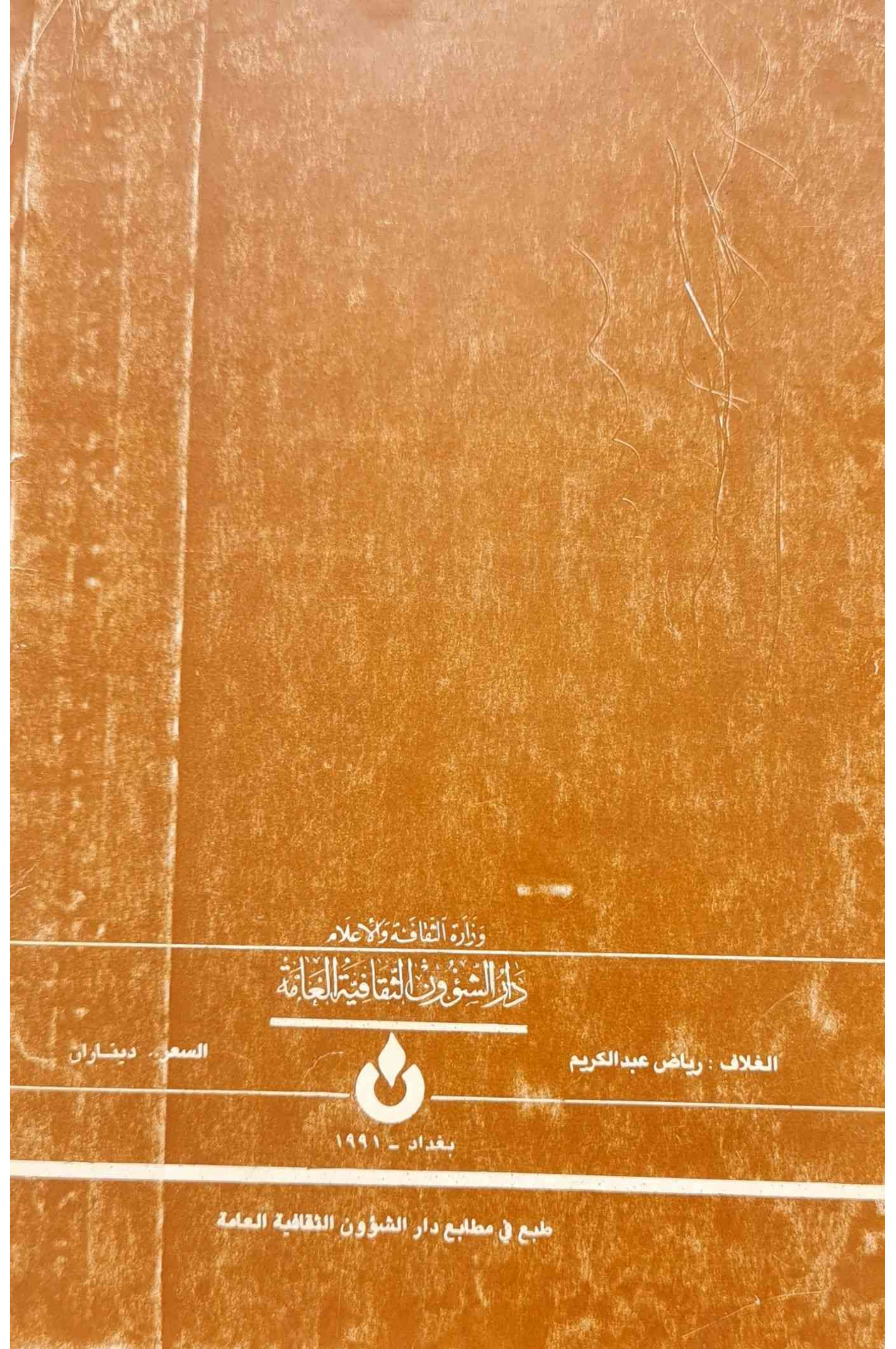
Setton, A history of The Crusades, 1958.

Grousset, Histouirec des Croisades, Paris 1948.

الفهرست

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة




وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
الغلاف : رياض عبدالكريم
السعر.. ديناران
بغداد - ١٩٩١
طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة